

الرومانسية
في شعر أبي القاسم الشابي

الرومانسية في شعر أبي القاسم الشابي

خديجة العطشان



اسم الكاتبة: خديجة العطشان
اسم الكتاب: الرومانسية في شعر أبي القاسم الشابي
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: فارس حسن
الإخراج الفني: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى - أكتوبر ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2019 /



١١٤ ع جنوب الأحياء - السادس من أكتوبر
Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

ت / ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر،



بسم الله الرحمن الرحيم

المُقدِّمة

أبو القاسم الشابي ، هذه الشخصية المتفرّدة في أدبنا العربي الحديث، وإذا ما ذكرت الحساسية المفرطة والانفعال الشديد والتجاوب اللا محدود مع التجارب الشعورية، - إذا ما ذكرت هذه وتلك - فإنه أوّل من يتبادر إلى الذهن من الشعراء العرب المحدثين هو : شاعرنا أبو القاسم محمد بن بلقاسم الشابي ، فمما يدعو إلى الدهشة ولفت الانتباه أن هذه الكنوز الأدبية التي تركها الشابي كانت حصيلةً لتجربة شعرية لم يشأ القدر لصاحبها أن يعيش أكثر من خمس وعشرين سنة، وإذا كان استثناء سني الطفولة، فإن عمر الشابي بتجاربه المتنوعة الشاملة لا يتعدّى الثلاثة عشر عاماً، فظهر فجأة كشاعر تام النضج، فأى معجزة أدبية وأيُّ ندرة شعرية أتى بها الشابي ؟

إنَّ صحة فهم الشابي لرسالة الشعر، وكل ما أتى به في هذه
الفترة الزمنية القصيرة من الوضوح والعمق هو أول الأسباب
التي لفتت نظري إلى محاولة البحث عن سر هذه الجودة، وبيان
مظاهرها في شعره.

وعند قراءتي لديوانه كثيراً - وكثيراً جداً - ما كنتُ أجدُ
نفسي في أنفاس أبي القاسم الشابي فيأخذني بجزره ومدّه لأشاركه
تجربته ومشاعره فيبلّ دمعِي محملي.

وقد جعلتُ هذه الدراسة المُلحَّة عليّ، قائمة على أربعة
فصول على النحو التالي :

الفصل الأوّل : أبو القاسم الشابي : موجز ترجمته - بواعث التجربة
الشعرية عنده .

الفصل الثاني : مكونات المذهب الرومانسيّ - الحركة الرومانسية .

الفصل الثالث : جذور الرومانسية في الشعر العربي :
الرومانسية في القرون الإسلامية الأولى - الشابي والرومانسية في
العصر الحديث .

الفصل الرابع : الوطنية في شعر الشابي - الطبيعة في شعر الشابي -
المرأة في شعر الشابي .

غير أنّ تباين الآراء واختلافها حول الشابي في بعض
المواقف جعلني أنتقي ما هو قريبٌ إلى نفسي ورأيي، حيثُ إنّ
الجهل بتفاصيل حياة الشابي ومواقفه الدقيقة وتدخل العوامل

الفعالة التي اشتركت في تكوين تجربته الشعرية شكّل صعوبة ما، فلم تكن حياته واضحة أمامي كلّ الوضوح.

ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر عندما نظم الشابي قصيدته "إلى الله" ورد في كتاب "الشابي شاعر الحب والحياة" لـ "عمر فروخ" ^١ أنّ الشابي شطح في هذه القصيدة شطحة هي الإلحاد، ولكنني لم أقتنع بذلك (وهو وصفه بالإلحاد) لأنّ الشابي عندما قال :

خَبَّرُونِي هَلْ لِلوَرَى مِنْ إِلِهٍ رَاحِمٍ - مِثْلَ زَعَمِهِمْ - أَوْاه !

أدرك المزلق الذي وقع فيه قبل أن يرتد نفسه عن البيت

الثاني فقال بعده مباشرة:

مَا الَّذِي قَدْ أَتَيْتَ يَا قَلْبِي الْبَالِي وَمَاذَا قَدْ قُلْتَهُ يَا شِفَاهِي ؟

يَا إِلَهِي، قَدْ أَنْطَقَ الْهَمُّ قَلْبِي بِالَّذِي كَانَ فَاعْتَفِرْ يَا إِلَهِي !

فإنه لا يجوز - في رأيي - أن نصفه بالإلحاد من موقفٍ واحدٍ، بل هي محنة إيمانية اعترضته وخرج منها سليماً معافى، والعبرة بالنتائج.

كما أنني أهدف من دراستي لرومانسية الشابي إلى أن الشابي عندما كان شاعراً اتخذ من الشعر قضيةً يعيش من أجلها وأن رومانسيته سرٌّ من أعظم أسرار شهرته الأدبية، وهي التي تفسح له مكاناً في القلب، فقد كان صادقاً في شعوره وتعبيره، أميناً في حمل الرسالة الأدبية الفنية الرفيعة التي تضخم إيمانه بها.

"وكادت العواطف عنده تصبح مرضاً ناهشاً وإن الشعر كان هو السل الأكبر في حياة هذا الشاعر المشتعل ومن أجله عاش يتعذب بكل جمال يمر به، وإن كان عذابه لذيذاً".^١

وبين يديك الآن - أيها القارئ الكريم - حصداً رومانسياً لحياة أبي القاسم الشابي القصيرة يقدمه إليك الشابي نفسه فيقول:

١ نازك الملائكة، الآداب البيروتية يوليو ١٩٥٤ ورد هذا التعليق في "الشابي شاعر الحب والحياة لـ" عمر فروخ".

عِشْ بِالشُّعُورِ وَلِلشُّعُورِ فَإِنَّهَا
 دُنْيَاكَ كَوْنُ عَوَاطِفٍ وَشُعُورِ
 شِيدَتْ عَلَى الْعَطْفِ الْعَمِيقِ وَإِنَّهَا
 لَتَجِفُّ لَوْ شِيدَتْ عَلَى التَّفْكِيرِ
 وَتَظَلُّ جَامِدَةً الْجَمَالَ كُنُيبَةً
 كَالْمَوْتِ مُقْفِرَةً بَغَيْرِ سُرُورِ

وقد قال أبو الفرج الأصفهاني : ١

"ولست إساءة من أساء في القليل وأحسن في الكثير مُسْقِطَةً
 إحسانه. ولو كثرت إساءته أيضاً ثم أحسن لم يُقل له عند الإحسان
 أسأت، ولا عند الصواب أخطأت، والحق أحق أن يُتبع".

١ أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ - ٩٦٧ ف) صاحب "كتاب الأغاني".

وما زالت الكلمة الأخيرة لم تُقل في أي بحث إنساني،
ولا يزال الميدان مفتوحاً للدرس، فإن وفقتُ فمن الله وإن قصرتُ
فذلك جهد البشر.

"وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ" [يوسف ٧٦]

والله ولي التوفيق

الفصل الأوّل

أبو القاسم الشابيّ

- موجز ترجمته .

- بواعث التجربة الشعرية عنده .

أبو القاسم الشابيّ

١٩٠٩ ف - ١٩٣٤ ف

ولد أبو القاسم محمد بن بلقاسم الشابيّ يوم الأربعاء في الثالث من شهر صفر سنة ١٣٢٧ هجرياً الموافق الرابع والعشرين من شهر مارس عام ١٩٠٩ إفرنجي في بلدة توزر بتونس، وهو من أبناء القرن العشرين الذين نشأوا فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، أيام كان العالم العربي يتعثر بين حاضره الأليم وماضيه القريب المنقوص، ودعاة الإصلاح وأنصار الحديد في تلك الفترة الانتقالية، إنما يلقون جحوداً وأذى لن تزيدهما سيطرة الغرب على الشرق وشموخه بحضارته، ووثوقه بمصيره، إلا احتداماً وسطوة لدى فريق واسع من الخاصّة والعامة على السواء.

بيد أن الشاعر لم يتردد كثيراً حتى عرف سر به فانضم إليه ثم
صدق محققاً إلى أن اختطفته يد المنون وهو في ريعان الشباب .

كان والده ^١ من خريجي الأزهر ومن مجازيه، وبه درس أولاً
فأقام بمصر في أوائل القرن العشرين سبع سنين، ثم درس بتونس
بجامع الزيتونة حصل بعدهما على "التطويع" ^٢ ثم سمي قاضياً
شرعياً لسنة من ولادة بكره أبو القاسم فتصرف في قضاء كثير من
البلدان التونسية .

كان يقضي يومه بين المحكمة والمسجد والمنزل حيث يتبسط
مع أهله، ولقد نشأ أبو القاسم الشابي في سني تكوينه الفكري
والخلقي في كنف رعايته الصالحة يقتبس من علمه وآدابه .

^١ هو المرحوم الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي سليل أسرة شايبة التي تمخضت
للعلم بعد أن أنجبت في القرنين العاشر والحادي عشر هـ من حملة القلم
والسيف، من اكتسبت بمساعيهم مجداً سجله التاريخ التونسي .
^٢ هي إجازة نهاية الدراسة بالكلية الزيتونية في ذلك العصر .

كان رحمه الله صادق التقى، قوي العقيدة لا يخشى في الحق لومة لائم، له غيرة على شؤون الإسلام والمسلمين، تنفعل نفسه بما يجري آنذاك من أحداث بالشرق العربي وطرابلس الغرب أو بلاد الريف . قال الشاعر متحدّثاً عن أبيه :

"إنّه أفهمني معاني الرّحمة والحنان وعلمني أنّ الحق خير ما في هذا العالم وأقدس ما في الوجود" .

لم ينشأ أبو القاسم بمسقط رأسه، فقد خرج عنه في سنته الأولى ولم يكد يعرفه إلا قليلاً، أثناء قدمتين أقام فيهما نحواً من ثلاثة أشهر، الأولى عند ختانه في الخامسة من عمره، والثانية زائراً، وقد استغرقت جولة الأسرة عشرين سنة ضربت في بحرها بالبلاد التونسية طويلاً وعرضاً، متنقلة من قابس إلى سليانة فتالة، ومن مجاز الباب إلى رأس الجبل فزاغون. وبين هذه المدن من الأميال ما يقدر بالمئات أحياناً، وعلى نسبة ذلك اختلاف العادات واللهجات والمشاهد الطبيعية. فلم تكن واحة قابس كبساتط مجاز الباب

يغمرها الحصيد، ولا هذه كبساتين رأس الجبل أو كجبل زغوان
يكسوه شجر الصنوبر، ولم يكن حرُّ قابس كثلوج تالة، ولا حياة
الفلاحين بمجاز الباب كحياة صياديّ البحر بقابس أو رأس الجبل،
ولا طباع أهل الشمال كطباع أهل الجنوب .

هذه مراحل أبي القاسم الشابي وشبابه عملت على تضخم
تجربته، وتدفق شاعريته، وازدهار ريشته، بيد أنَّ الشاعر أفاد ما
يفيده كل عابر سبيل متيقظ واعٍ، وإذا ما استقرَّ بأرضٍ كان ربيها لا
ابنها الأصيل . فأطلقه هذا المصير من حدود البيئة الضيقة وأكسبه
"تونسية" إنسانية الآفاق .

وفي آخر المحرّم من سنة ١٩٣٩ هـ الموافق ١١ / ١٠ / ١٩٢٠
قبل أن يتمّ الثانية عشرة أرسله أبوه إلى العاصمة التونسية وألحقه
بجامع الزيتونة ، وقد تكوّن سريعاً وقال الشعر باكراً .

كوّن لنفسه ثقافة اسعة عربية بحثة جمعت بين التراث العربي
في أزهى عصوره وبين روائع الأدب الحديث بمصر والعراق

وسوريا والمهجر، ولم يكن يعرف لغة أجنبية، فتمكن بفضل مطالعته الواسعة من استيعاب ما تنشره المطابع العربية من آداب الغرب وحضارته. وكانت أوّل نشراته في الصفحة الأدبية التي كانت ترتبها "النهضة" كل اثنين سنة ١٩٢٦ ف وفي سنة ١٩٢٧ ف ظهر شعره مجموعاً في المجلّد الأوّل من كتاب "الأدب التونسي في القرن الرابع عشر" وفي نفس السنة ألقى بنادي قدماء الصّادقية محاضرة حول "الخيال الشعريّ عند العرب" كانت مادّة الكتاب الذي نشر بنفس العنوان في السّنة التالية .

وإنّك لتجده وهو يواصل دراسته ويضع شعره في صميم حركات الإصلاح التي تشتد بها النفوس آنذاك من بعث لحركة الشبان المسلمين ودعوة لتجديد الجهاز الثقافي التقليديّ، ومناصرة لحركة تحرير المرأة ودعوة لتجديد في الأدب تحتل المكان الأوّل من نفسه، ولقد أحدث كتابه "الخيال الشعريّ" الضجة الكبرى،

واستهدف الشاعر بسببه حملة صحفية عنيفة ثبت لها ثبات الرائد المؤمن بما يقول .

نشرت هذه الآثار في حياة والده، فلم ينكر عليه مذهبه، ووجد الشاعر في تسامح أبيه ما يعزز جانبه، وفي هذه الأثناء (سنة ١٩٢٩ ف) نُكِب بوفاة والده المحبوب ولقد رافقه عليلاً من بلد "زغوان" إلى "توزر" مسقط رأسه، وتجرّع غصص مرضه، وطفحت الكأس بموته وهو في الخمسين من عمره، فأضلع^١ بأعباء عائلة كبيرة واختار طريقاً وعراً، فإنه - ضناً بحرية الأديب والشاعر - لم يلج باب الارتزاق من المناصب الحكومية ورضي بحياة بسيطة على رأس أسرته بتوزر حيث تزوج، ولعلّ هذا الذي عناه بعضهم حين قال :

" كنّا نرى في نفسه الزكيّة مثال القناعة في أفضل ألوانها والطوح على خير وجوهه " .

١ أضلع بهذا الأمر : إذا قدر عليه، كأنه قويت ضلوعه بحمله.

وفي السنة نفسها أصيب بداء تضخم القلب، وهو في الثانية والعشرين من عمره، بيد أنه رغم نهي الطبيب لم يقلع عن عمله الفكري، وواصل إنتاجه نثراً وشعراً. وقد نُشرت له سنة ١٩٣٣ ف بمجلة "أبولو"^١ المصرية قصائد عملت على التعريف به في الأواسط الأدبية بالشرق العربي.

ولم يكن الشاعر المريض يغادر "توزر" إلا في الصيف ويقصد المصايف الجبلية كعين دراهم بالشمال التونسي ١٩٣٢ ف، والمشروحة ببلاد الجزائر سنة ١٩٣٣ ف وشرع أثناء مصيف سنة ١٩٣٤ ف في جمع ديوانه "أغاني الحياة" بنيّة طبعه بمصر فانتسخه بنفسه بحامة^٢ الجريد، مستعيناً ببعض أدبائها لكن باغتته المنية وحالت دون ما نوى، فقد انتابه المرض بغاية الشدة وقصد تونس يوم ٢٦-٨-١٩٣٤ ف وبها توفي سَحْراً يوم ٩-١٠-١٩٣٤ ف ثم

١ أبولو : إله الشعر عند اليونان، أو إله الفن بشكل عام ويطلق أيضاً على قائد عربة القمر .

٢ كل عين فيها ماء حار ينبع يستشفى بها الأعلاء، ومثلها حامة توزر .

نقل جثمانه إلى بلده (الشابية قرب توزر) حيثُ قبره . (ثم نقل إلى
توزر أمام دار الثقافة بين النخيل).

نحيف الجسم، مديد القامة، قويّ البديهة، سريع الانفعال،
حاد الذهن تكفّف رقة طبعه من غرب عاطفته وحدّة ذهنه، يراه
أصدقاؤه بشوشاً، كريماً، وديعاً، متأنقاً، طروباً لمجالس الأدب،
يجب الفكاهة الأدبية، ويراها من لم يخالطه حياً محتشماً ويعرف منه
هؤلاء وأولئك صراحة حازمة قوية يبدّيها لخاصّة خلطائه في غير
تحرّج متى اجتمع بهم ويجاهر بها العموم في شعره ونثره، وهو حين
ضجر من الناس وتبرّم بهم عبّر عن ذلك بصراحة بقوله:
ياربّة الشّعِرِ غَنّيني فَقَدْ ضَجِرْتُ

نَفْسي مِنَ النَّاسِ أَبْنَاءَ الشَّيَاطِينِ
تَبَرَّمْتُ بَنِي الدُّنْيَا وَأَعَوَزَهَا

في مِعْزَفِ الدَّهْرِ غَرِيدُ الْأَرَانِينِ^١

^١ الأرانين كلمة غير قاموسية. الشابي يقصد أنواع الرنين (الأصوات التي فيها شيء من النغم) .

يَا رَبَّةَ الشُّعْرِ إِنِّي بَائِسٌ تَعِسُّ

عَدِمْتُ مَا أَرْتَجِي فِي الْعَالَمِ الدُّونِ

فَإِنَّ قَلْبِي قَبْرٌ مَظْلَمٌ قُبِرَتْ

فيه الأمانى فما عادت تناغيني^١

وكان محباً لبلاده، صادق الوطنية يؤمن بأنَّ لقادة الفكر

رسالة إنسانية سليمة ،حاول جهده أن يحققها في أثناء حياته

القصيرة قولاً وعملاً، يقول في قصيدته "إلى الطاغية" :

لَكَ الْوَيْلُ يَا صَرَخَ الْمَظَالِمِ مِنْ غَدٍ

إِذَا نَهَضَ الْمُسْتَضْعَفُونَ، وَصَمَّمُوا !

إِذَا حَطَّمِ الْمُسْتَعْبِدُونَ قِيودَهُمْ

وَصَبُّوا حَمِيمَ السَّخَطِ أَيَّانَ تَعْلَمُ !

أَغْرَكَ أَنَّ الشَّعْبَ مَغْضٍ عَلَى قَدَى

وَأَنَّ الْفَضَاءَ الرَّحْبَ وَسَنَانَ، مَظْلَمٌ ؟

ألا إِنَّ أَحْلَامَ الْبِلَادِ دَفِينَةٌ،
تُجْمَعُ فِي أَعْمَاقِهَا مَا تُجْمَعُ

١ وفي قصيدته "إرادة الحياة" يقول :
إِذَا الشَّعْبُ يَوْمًا أَرَادَ الْحَيَاةَ
فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ الْقَدْرُ
وَلَا بُدَّ لِلَّيْلِ أَنْ يَنْجَلِيَ
وَلَا بُدَّ لِلْقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِرَ
وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الْحَيَاةِ
تَبَخَّرَ فِي جَوْهَا وَإِنْدَثَرَ

بواعث التجربة الشعرية عند أبي القاسم الشابي:

خلق شخصية الشابي العجيبة عوامل واضحة المعالم في حياته وفي أحواله النفسية ثم بعث التجربة الشعرية في اتجاهه الفكري وفي شعره.

(أ) حال بلده تونس، في البؤس الاجتماعي والتخلف الثقافي، والضعف السياسي، مما خلفه الاستعمار الفرنسي فلم يكن بإمكان الشابي إلا أن يتأثر بحال تونس في التعس والفقر والظلم. ولقد أنصف الشابي بلده في شعره فلم يكتفِ بأن يصفه وصف ناقمٍ أو راحمٍ فقط، بل كان يحثُّ قومه على الرقيّ يمينهم بالنتائج التي يمكن أن يصلوا إليها إذا هم استيقضوا ونهضوا. غير أنه أيضاً كان في بعض شعره السياسي متشائماً ويظهر هذا واضحاً في قصيدته "النبيّ المجهول" التي يقول فيها :^١

أَيُّهَا الشَّعْبُ لِيَتْنِي كُنْتُ حَطًّا
 بَأْفَاهْوِي عَلَى الْجُدُوعِ بِفَأْسِي
 أَنْتَ رَوْحٌ غَبِيَّةٌ تَكْرَهُ النُّورَ
 وَتَقْضِي الدُّهُورَ فِي لَيْلٍ مَلْسٍ
 إِنَّنِي ذَاهِبٌ إِلَى الْغَابِ يَا شَعْرَ
 بِي لِأَقْضِيَ الْحَيَاةَ وَخَدِي بِبَأْسِي
 ثُمَّ أَنْسَاكَ - مَا اسْتَطَعْتُ - فَمَا أَنْ
 تَ بِأَهْلٍ لَخَمَرَتِي وَلِكَأْسِي!

وكذلك في قصيدته: أحلام شاعر" حيث يقول :^١
 لَيْتَ لِي أَنْ أَعِيشَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
 سَعِيداً بِوَحْدَتِي وَانْفِرَادِي

لَا أُعْنِي نَفْسِي بِأَحْلَامِ شُعْبِي
 فَهُوَ حَيٌّ يَعِيشُ عَيْشَةَ الْجَمَادِ
 أَيْنَ هُوَ مِنْ خَرِيرِ سَاقِيَةِ الْوَادِي

وَوَخَفَقَ الصَّدَى وَشَدَّوِ الشَّادِي
 فَكَانَتْ صَوْتُ تُونِسَ فِي أُنَيْنِهَا وَنَدَائِهَا وَفَخْرُهَا فَهُوَ
 شَاعِرُهَا بِلَا مَنَازِعَ، وَلَقَدْ شَهِدَ الشَّابِي فِي أَثْنَاءِ حَيَاتِهِ الْقَصِيرَةِ فِتْرَةَ
 مِنْ تَارِيخِ الشَّعْبِ التُّونِسِيِّ كَانَتْ الْمَشْكَلَةُ الْجَوْهَرِيَّةُ فِي أَثْنَائِهَا قِصَّةُ
 بَقَاءِ هَذَا الشَّعْبِ أَوْ انْقِرَاضِهِ .

وَكَانَ الشَّابِي يَعْمَلُ عَلَى بِنَاءِ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ فِي صُورِهَا
 الْمُتَعَدِّدَةِ، الْأَدْبِيَّةِ مِنْهَا وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، فَلَمْ تَطُقِ الرُّجْعِيَّةُ الْمَاضِي مَعَهُ فِي
 هَذَا التَّمَرُّدِ الْخَالِقِ، وَلَمْ تَرْضَ لِنَفْسِهَا التَّخْلِي عَنْ كَسَلِهَا الْقَاتِلِ
 فَسَعَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ وَهَاجَمَتِهِ الصَّحَافَةُ حَيْثُ أَتَمَّتْهُ بِالْدَّعْوَةِ إِلَى
 (أَدَبِ الْأَغْرَابِ وَمُحَارَبَةِ أَدَبِ الْأَعْرَابِ).

ولقى مناوأة^١ في بيئته لأن "العاطفة قد أفسدت عليه حياته وأصابته بدائه القتال الذي حطمه وأودى به وهو في نضارة الشباب كما أفسدت كثيراً من أحكامه، حين أوهمته بأنه ليس من طينة الناس" ^٢

١ مناوأة: مشقة .

٢ الشابي وجبران ص ٤٤ .

(ب) مرضه :

وعن مرضه نشأ تشاؤمه والسوداوية عنده وشدة انفعاله
 حيناً بعد حين فقد كان لمرض الشابي تأثيرات متنوعة متعدّدة
 وانعكست على نفسية الشابي وأدبه الجميل، حتى إنّ عدداً من
 قصائده كانت ملامح صادقة لمرضه .

مُنِيَ الشابي بمرضٍ لا يرجى منه شفاء فلم يستطع الثورة
 على حاله الطبيعية المرضية كما ثار على حاله النفسية والاجتماعية،
 إنّه كان يظن أنّ كل شيء في العالم يمكن أن يتبدّل إذا شاءت
 الإرادة الفردية أو الشعبية أن تبدله .

ولكنه لما اصطدم بحقائق الحياة الطبيعية قيّده المرض أدرك
 أنّ هذه الإرادة عاجزة عن تبديل ما قد جرى به الزمن الأوّل فعاد
 يطمئن نفسه بصحة القدر .

إِنَّ فِي الْآيَاتِ التَّالِيَةِ إِذْعَانًا لِلْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَرِضًا بِمَا جَرَى

به القلم الأزلي، يقول في قصيدته "نشيدُ الأسي": ١

مَالِي تُعَذِّبُنِي الْحَيَاةُ كَأَنَّنِي خَلَقْتُ غَرِيبًا؟
وَإِذَا سَأَلْتُ: لِمَ الْوُجُودُ؟ وَكُلُّهُ هَمٌّ مُذِيبُ
قَالَتْ: نَوَامِيسُ السَّمَاءِ قَضَتْ وَمَالَكَ مِنْ هُرُوبِ!

وإذا كان الشابي أحيانا يحاول أن يتمرد على نتائج القضاء
والقدر فإنه مقتنع بأن هذه النتائج مردها إلى أمر كان قد أقره
القضاء نفسه .

يقول في قصيدة "نشيد الجبار" :^١

سَأَعِيشُ رَغَمَ الدَّاءِ وَالْأَعْدَاءِ

كَالنَّسْرِ فَوْقَ الْقِمَّةِ الشَّمَاءِ

وَأَقُولُ لِلْقَدَرِ الَّذِي لَا يَنْثَنِي

عَنْ حَرْبِ آمَالِي بِكُلِّ بَلَاءٍ:

"لَا يَطْفِئُ اللَّهَبَ الْمُوجَّجَ فِي دَمِي

مَوْجُ الْأَسَى، وَعَوَاصِفُ الْأَرْزَاءِ"

وبعد هذا الكفاح الظاهر يعود الشابي فيستسلم للقضاء

والقدر، إذ لا يجد بداً من الاستسلام مادام كل شيء يجري هذا
المجرى المكتوب .

إنَّ استسلام الشابي للقضاء والقدر لم يطلع الشابي على

سرها ولا حل له لغز الحياة بل ألقاه في الحيرة ودلاه في اليأس .

يقول في قصيدة : ١

أَرَى هَيْكَلَ الْآيَّامِ يَغْلُو مَشِيدًا
 وَلَا بَدَّ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى رَأْسِهِ الْهَدْمُ
 فَيَصْبِحُ مَا قَدْ شَيَّدَ اللَّهُ لِلْوَرَى
 خَرَابًا كَأَنَّ الْكُلَّ فِي أَمْسِهِ وَهُمْ
 لَتَعْسِ الْوَرَى شَاءَ الْإِلَهُ وَجُودُهُمْ
 فَكَانَ لَهُمْ جَهْلٌ وَكَانَ لَهُمْ فَهْمٌ

ولمّا أفاق الشابي من النوبة الشديدة التي انتابته عام ١٩٣٠

ف، نظم قصيدته "إلى الله" ٢ فشطح فيها شطحة يقول فيها :

خَبَّرُونِي هَلْ لِلْوَرَى مِنْ إِلِهِ رَاحِمٍ - مثل زعمهم - أَوْاهُ !
 إِنِّي لَمْ أَجِدْهُنِي هَاتِهِ الدُّنْيَا فَهَلْ خَلَفَ أَفْقَهَا مِنْ إِلِهِ ؟

١ لم يضع الديوان عنوان لهذه المقطوعة - ديوان ٧٢ ص ٢٩٢ .

٢ ديوان ٧٢ ص ١٠١ .

ويدرك الشابي المزلق الخطر الذي وضع قدمه عليه، قبل أن

يرتد نفسه عن البيت الثاني فيقول بعده مباشرة :

مَا الَّذِي قَدْ أَتَيْتَ يَا قَلْبِي الْبَاكِي

وَمَاذَا قَدْ قُلْتِهِ يَا شِفَاهِي ؟

يَا إِلَهِي قَدْ أَنْطَقَ الهمُّ قَلْبِي

بِالَّذِي كَانَ فَاغْتَفِرْ يَا إِلَهِي !

(ج) حالته المادية وموت أبيه :

وعنها نشأ ضغط أعباء الحياة وتكاليفها عليه فحرمه كثيرا من الحرية التي كان يجب عليه أن يتمتع بها، حيث كان موت والده قد ألقى على كاهله من الأعباء المادية فكانت وفاة والده خسارة مادية وكانت رزية أدبية هزت من نفس شاعرنا بل كانت أعظم رجة أصيب بها قلبه وأكبر مصاب نزل به في حياته فألقيت عليه أعباء عائلة كبيرة ولقد زاد في ثقل هذا العبء أن أبا القاسم "لم

يشأ أن يلج باب الإرتزاق من المناصب الحكومية" .^١

ومع ذلك كله فقد استطاع أبو القاسم الشابي أن يتمّ دراسته في كلية الحقوق التونسية وأن ينال إجازتها في سنة ١٩٣٠ م

ومر زمن كان الشابي فيه تاعسا مثقلا بأعباء الحياة، يظهر

ذلك في قصيدته "يا موت" التي رثى بها أباه، يقول فيها: ١

يا موتُ قد مزَّقتَ صَدْرِي وَقَصَّمتَ بِالْأَرْزَاءِ ظَهْرِي
وَفَجَّعْتَني فِي مَنْ أَحَبُّ وَمَنْ إِلَيْهِ أَبْتُ سِرِّي
وَرَزَّأْتَنِي فِي عُمَدَتِي وَمَشُورَتِي فِي كُلِّ أَمْرٍ
وَهَدَمْتَ صَرْحاً لَا أَلُوذُ بغيرِهِ وَهتكتَ سِتْرِي
وَفَقَدْتُ كَفَاءَ فِي الْحَيَاةِ تَصُدُّ عَنِّي كُلَّ سِرٍّ
وَفَقَدْتُ رُكْناً فِي الْحَيَاةِ وَرَايَتِي وَعِمَادِ قَصْرِي

ويعود الشابي في قصيدته "قيود الأحلام" ٢ فيكشف لنا عن

حقيقة هذه الأحوال التي تعذبه في الحياة فإذا هي القيام بأعباء

الأسرة التي خلفها أبوه فيقول:

لَكِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ فَإِنَّ لِي أُمًّا يَصُدُّ حَنَانُهَا أَوْهَامِي

١ ديوان ٧٢ ص ٢٣٤ .

٢ ديوان ٧٢ ص ٢٨٨ .

وَصِغَارَ إِخْوَانٍ يَرُونَ سَلَامَهُمْ فِي الْكَائِنَاتِ مَعْلَقاً بِسَلَامِي
فَقَدُّوا الْأَبَّ الْحَانِي فَكُنْتُ لَضَعْفِهِمْ كَهَفاً يَصُدُّ غَوَائِلَ الْأَيَّامِ
وَيَقِيهِمْ وَهَجَ الْحَيَاةِ وَلَفَحَهَا وَيَذُودُ عَنْهُمْ شَرَّهَ الْأَلَامِ
فَأَنَا الْمُكَبَّلُ فِي سَلَاسِلِ حَيَّةٍ صَحَّيْتُ مِنْ رَأْفِي بِهَا أَحْلَامِي
ولكنَّ أبا القاسم الشابي سرعان ما ينسى ذلك كله، لأنَّ

الحاجة رفعت عن ظهره سوط عذابها فصلحت حاله مادياً . ثمَّ إنَّ
شيئاً من التحسن العارض طرأ على صحته فأحس بفيض الحياة في
جسمه فنسى كثيراً من آلامه وجميع أحزانه، فإذا في ديوانه مقطوعة
عنوانها "الاعتراف" ^١ يقول فيها :

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ بَعْدَ مَوْتِكَ يَا أَبِي
وَمَشَاعِرِي عَمِيَاءُ بِالْأَحْزَانِ
إِنِّي سَأُظْمَأُ لِلْحَيَاةِ وَأُحْتَسِي
مِنْ نَهْرِهَا الْمَتَوَهَّجِ النَّشْوَانِ

وَأَعُوذُ لِلدُّنْيَا بِقَلْبٍ خَافِقٍ
لِلْحُبِّ وَالْأَفْرَاحِ وَالْأَلْحَانِ
وَلِكُلِّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ صُورِ الْمُنَى
وَعَرَائِبِ الْأَهْوَاءِ وَالْأَشْجَانِ
حَتَّى تَحَرَّكَتِ السُّنُونُ وَأَقْبَلَتْ
فَتَنُ الْحَيَاةِ بِسُخْرِهَا الْفَتَّانِ
فَإِذَا أَنَا مَازِلْتُ طِفْلاً مُوَلَّعاً
بِتَعَقُّبِ الْأَضْوَاءِ وَالْأَلْوَانِ
وَإِذَا التَّشَاوُؤُْمُ بِالْحَيَاةِ وَرَفُضُهَا
ضَرَبُ مِنَ الْبُهْتَانِ وَالْهَذْيَانِ
إِنَّ ابْنَ آدَمَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ
عَبْدُ الْحَيَاةِ الصَّادِقِ الْإِيمَانِ

(د) مطالعاته :

وهي التي طَبَّعت نفسه وشعره بعناصر من الخيال والانفلات والنقمة ، ثمَّ أدخلت على شعره شيئاً من الجِدَّة والطرافة ، فقد تركت في نفس الشابي وعلى شعره أثراً عميقاً باقياً . وكانت مطالعته في النتاج الأدبي الحديث وفي الأدب المهجري ، وفي أدب جبران منه خاصة .

"وينعقد الإجماع على أنَّ الشابي كان تلميذاً للمدرسة المهجرية. والطابع الذي تركته هذه المدرسة في أدب الشابي لا سبيل إلى إنكاره وإغفاله وتجاهله" ^١

والتليسي في كتابه "الشابي وجبران" يقول :
 " بأنَّ أغلب الدراسات تتفق على تأثير جبران في الشابي ولكنها تقف صامتة عند تحديد مدى هذا التأثير " .

^١ الشابي وجبران ص ٤٩ .

ويعقد التليسي في كتابه "الشابي وجبران" في الشابي فصلاً
 عنوانه "الشابي وجبران" (ص ٤٩ - ٦٦) أراد أن يصحح فيه
 الوهم الذي علق ببعض الأذهان فصور لها أن أثر جبران في
 الشابي لم يتعدّ حدود التشابه في الصياغة وطريقة الأداء ورأى
 التليسي أن " الدراسة الواعية لتنتاج هذين الأديبين تكشف مدى
 الأثر العميق الذي طبع به جبران الشابي " .

ونلاحظ أن الحب والحرية والتمرد والطموح والثورة على
 الجمود والرجعية وإيثار الأمل الحافز الذي يدفع الأفراد والشعوب
 إلى الحياة والنهوض حيّ في قصيدته "النبي المجهول" ^١

التي يقول فيها :

لَيْتَ لِي قُوَّةَ الْعَوَاصِفِ ، يَا شَعْبِي
 فَأُلْقِي إِلَيْكَ ثَوْرَةَ نَفْسِي

لَيْتَ لِي قُوَّةَ الْأَعَاصِيرِ ، إِنَّ ضَجَّتْ

فَأَذْعُوكَ لِلْحَيَاةِ بِنَبْسِي !

لَيْتَ لِي قُوَّةَ الْأَعَاصِيرِ . . لَكِنْ

أَنْتَ حَيٌّ يَقْضِي الْحَيَاةَ بِرَمْسٍ

وفي قصيدة "إلى الشعب" ^١ يقول :

أَيْنَ يَا شَعْبُ قَلْبُكَ الْخَافِقُ الْحَسَّاسُ ؟

أَيْنَ الطُمُوحُ وَالْأُخْلَامُ ؟

أَيْنَ يَا شَعْبُ رُوحُكَ الشَّاعِرُ الْفَنَّانُ ؟

أَيْنَ الْخَيَالُ وَالْإِلَهَامُ ؟

أَيْنَ يَا شَعْبُ فَنُكَ السَّاجِرُ الْخَلَّاقُ ؟

أَيْنَ الرُّسُومُ وَالْأَنْغَامُ ؟

ففي هاتين القصيدتين ملامحٌ لأثر أدب جبران في أدب

الشابي ، وغيرهما كثير ولكننا لسنا بصدد إحصائها .

الفصل الثاني

- مكوّنات المذهب الرومانسي .

- الحركة الرومانسيّة .

المذهب الرومانسيّ :

من أين جاء مصطلح الرومانسيّة ؟

المصطلح الرومانسيّ يعني القصّة الطويلة في الفرنسية، أو القصّة الخيالية في الانجليزية .

وأول من استخدم هذا المصطلح الرومانسيّ :تورنيت" وهو كاتب فرنسيّ في نهايات القرن السابع عشر، واستخدم هذا المصطلح أثناء تحليله لشخصيات "شكسبير" وعن الشخصيات الذاتية التي يُعنى بذواتها، وتتميز هذه الشخصيات بالعاطفة الشديدة، وكثيراً ما كانت تموت حباً مثل "روميو وجوليت" .

وقامت الحركة الرومانسيّة بشكل نشط في القرن التاسع عشر في فرنسا، وباقي الدّول الأوروبية المجاورة، وتميزت في إنجلترا، وهناك من قال بأنّ الرومانسيّة وُلدت في إنجلترا، ونشطت في فرنسا .

مكوّنات المذهب الرومانيّ :

أولاً : المكوّن التاريخي :

وبدأ منذ انشقاق الشعوب المحلية على السّلطة في روما، حيثُ كانت روما تمثّل أكبر دولة بالعالم، وتكاد تكون أكثر أجزاء آسيا وأفريقيا، وجميع أوروبا تحت حكم هذه الدّولة باستثناء الدولة البريطانية.

ونظراً لكبر الرقعة الخاضعة لحكم الدولة الرومانية، وعدم قدرة الحاكم من السيطرة على أراضيه، استقلت مناطق من الحكم الروماني وشعوب تلك المناطق المحليّة هم يعرفون بالرّعوية أو الشعبيّة وقد أطلقت هذه الشعوب على نفسها اسم "الرومانس" وهي تعني طبقة البسطاء الخارجة على الحكم الروماني الأصلي، أي الدولة الرومانية، وهذا المكوّن هو الذي أفرز حبّ الطبيعة.

ثانياً : المكوّن العربيّ :

وهو يتمثّل في الشعر العذريّ العربيّ، حيث انتقلت قصص العذريين من الأدب العربي إلى أوروبا عن طريق الأندلس، باعتبار أنّ الأندلس تمثل أوج الثقافة في أوروبا فأخذ أولئك الأوروبيون كثيراً من تقاليد وقيم العرب، والموروث العربي الذي عرّفهم على حب العذريين الذين يموتون حباً وعشقا^١، وشاعت هذه الأمثلة حتى عرفت في جميع أوروبا، وخُلدت من قبل كتابها، وشعرائها بالذات، وأضيف لونا رومانسياً جديداً، وهو حِدة العاطفة - أي العاطفة العميقة والتفاني في سبيل المحبوب - .

وعلى هذا تغيّر البطل الرومانسيّ في العصور الوسطى ، من بطل كلاسيكي عنيف مدّمّر مثل فكتور ، وميخائيل في الإلياذة إلى بطلٍ عنيفٍ ومُحب وصاحب نجدة ، وهؤلاء هم من أُطلق عليهم

١ أوّل من أحدث هذه النقلة هو المستشرق "جيب"

(فرسان العصور الوسطى) وأفراد هذا المكوّن العربي يتمثل في هؤلاء الفرسان ، ومن أمثلة الأثر للحب العذري قصّة "روميو وجوليت" .

ثالثاً : المكوّن الديني :

فقد عرفت أوروبا في عصورها المتأخرة المظلمة شيوعاً كبيراً للجريمة والاعتداء ، وفقدان الأمن ، مما دعا الكنيسة للقيام بنشاط كبير في الوعظ الديني ، وإرشاد الناس ، وترقيق قلوبهم ، وإشاعة الخوف من الآخرة ، ونبد الدنيا ، والحث على التعاون ، وحبّ الآخرين ، ونبد القيم الجائرة ، ومحاربة الشر في النفوس .

رابعاً : المكوّن الاجتماعي :

فقد كان لسقوط نابليون ، وسقوط الإمبراطورية الفرنسيّة بالكامل الأثر البالغ في نفوس الشباب ، وذلك لما كان يمثل نابليون

بالنسبة لهم ، فشعر بالانسحاق ، وخيبة الأمل وإضاعة المستقبل ،
فشاع الفساد ، والضياع ، والتمرد ، وعدم الثقة ، وقد سمي ذلك
الطموح الذي لا يمكن تحقيقه بما يُعرف بـ [مرض العصر] فكلمها
أراد الشباب شيئاً لم يستطع تحقيقه ، وبين خيبة الأمل والإخفاق
عاش المجتمع الفرنسيّ أوان ذلك ، فهذا العامل أضاف للرومانسية
تشاؤماً ، وسوداوية اصطبغ بها المجتمع المنهزم .

واستجابة لهذه العوامل الأربعة : التاريخي ، والعربي ،
والدينيّ ، والاجتماعيّ تكونت الرومانسية ، أو الحركة الرومانسيّة .

الحركة الرومانسيّة :

بعد أن تشبّع كتاب أوروبا بهذه العوامل ، وبعد أن ضغطت الكلاسيكية بتزمّتها على الناس ، دعا بعض المفكرين والأدباء إلى تغيير كامل في المجتمع والفن ، وأخذوا ينظرون في كتابتهم لهذا التغيير المقبل الجديد ، وكثيراً ما كان الكتاب يعبرون عن هذه الآراء في مقدّمات كتبهم ، والشُعراء في مقدّمات دواوينهم، فكانت الحركة الرومانسيّة .

ومن أهم كتّاب الرومانسية في فرنسا (مدام رستال) ، و(شوبن هاور)، و (فيكتور هيجو) .
ومن أهم كتّابها وشعرائها في إنجلترا (باريون)، و (قيتس)، و(شيلي) .

وقد دعا الرومانسيون الإنجليز إلى إنطلاق العاطفة والخيال، والبحث في ما وراء الطبيعة ، والبحث في خواطر الأطياف في العصور الوسطى .

ونشط الرومانسيون في فرنسا نشاطاً كبيراً فدمروا كل ما هو كلاسيكي ، وخرجوا ذات مرّة في تظاهرات في الشوارع العامّة يهتفون للرومانسيّة ، وأخذ عموم الرومانسيين يفتشون عن تقاليد جديدة ، وخلق أنماط جديدة في الفن والأدب، ولذلك لجأ بعضهم إلى العيش في المقابر والخرائب ، وقسم آخر عاش في الجبال والكهوف ليستمعوا إلى العواصف ، وأصوات الرّياح الشديدة ، وقسم آخر خالط الحيوانات في الغابات ، وآخر كان يعيش على ضفاف الأنهار والبحار ، ويُعجب بالليالي المقمرة ، كما كان البعض يقيم في الأكواخ .

وقد بالغوا في معارضتهم للكلاسيكيين حتى لجأوا إلى وسائل بشعة وغريبة، فأخذوا يشربون الخمر في الجماجم ، بينما الكلاسيكيون يشربونه في كؤوس من ذهب ، كما أعجبوا بما عرّفوه بـ [عزيف الجنّ] .^١

^١ عزيف الجنّ : هو صوت الرياح المارة بين جبلين فقد أعجب الرومانسيون بهذا الصوت ، وأطلقوا عليه اسم "عزيف الجنّ" .

وهكذا أخذت الرومانسيّة في تدمير كل ما هو كلاسيكيّ ،
وتدمير وإلغاء الحدود بين الفنون جميعاً ، وعدم التمسك بالقواعد
الفنية لكل فن ، مما أشاع الفوضى والاضطراب حتى وقع البعض
من الكتاب والأدباء بالشطحات ، وباللامعقول ، وبالمحضور ، ممّا
جعل بعض المفكرين يشعر بهذا التّخريب الكبير وتصدّى له ، مثل
الناقد [آرثنج بابيت] الذي قال :

[لا خير في أدبٍ لم يراقب من قبل العقل] .

فدعا هذا الأديب إلى تقييد العاطفة ، وجعل كلّ عمل فنيّ
يُراقب من العقل ، وهكذا انتهت الرومانسيّة ، وبدأت الكلاسيكية
الجديدة في نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين .

الفصل الثالث

- جذور الرومانسيّة في الشُّعر العربيّ .
- * الرومانسيّة في القرون الإسلاميّة الأولى .
- الشابيّ والرومانسيّة في العصر الحديث .

جذور الرومانسية في الشعر العربي .

إنَّ الشكل التعبيري والصوري والفكري في الشعر العربي القديم كان غالباً كلاسيكياً بمعنى أنه جرى وفقاً لقواعد صارمة وتقليد في العبارة والوزن والقافية . إلا أنَّ روح الشعر كانت غالباً روحاً رومانسية بمعنى الانفعال، كان يزخر فيه وكانت التجارب في معظمها ذاتية كالرومانسية ، ومنذ العهد الأول كانت تجربة الطلل تجربة رومانسية خالصة ، فيها تعبير عن الزوالية المحتممة في متن الأشياء وقدرها وفيها بكاء عن العواطف وموت الأشياء والزمن ، وصورة عن ديب الموت في خلايا الوجود . وتلحق بتجربة الطلل تجربة المطايا الطاعنات في الغداة . والرحيل كان بالنسبة إلى الشاعر العربي القديم امتداداً من تجربة الطلل والصيرورة القائمة أبداً .

إلا أنَّ الشاعر العربي كان يقع في قبضة الوصف، وهو ملازم للتجارب البدائية التي تطرب في مرحلة أولى لنقل الأشياء

عبر اللفظ والصورة أو الفكرة . ومع ذلك فإن وصف البقرة الوحشية والصحراء والعقاب والسيّل والسراب ، إن ذلك الوصف المتمرد في القصيدة القديمة قد يتخذ الصفة البرناسية^١ من كونه مقتصرًا على التقرير وما يدنو إلى المحاكاة . إلا أن الشاعر استبطن عبره التعبير عن إحساس عميق بروح هذه المظاهر ولم يولجها في شعره مع أنها كانت والجة في نفسه .

وفي العصر العباسي كثر وصف الرياض ومواضع اللهو والقصور الدراسية المتعفية فضلاً عن معالم العمران ومواضع اللهو، وهذه الموضوعات قد تقع كلها في باب الرومانسية. إلا أنه لم تقم في الشعر العربي القديم نظرية رومانسية واعية يلتف عليها الشعراء وبينون الوجود ويهدمونه بالنسبة إليها ويوقعون عواطفهم ومواقفهم . ودعوة أبي نوّاس الدّاعية إلى التعبير عن

١ البرناسية : حركة جاءت بعد الرومانسية وهي تصف الطبيعة

وترسمها بصورة مجسمة في الشعر ورائدها شاعر فرنسي- "ده ليل"

وسبب هذه التسمية نسبة إلى جبال البرانس في فرنسا .

البيئة القائمة في الحاضرة العباسية والكف عن ارتياد تجربة الطلل
وما إليه في قوله :

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمٍ دَرَسَ
وَاقِفًا مَا ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلَسَ

إنّ تلك الدعوة كانت متهمة بالتأثر بالنزعة الشعبوية^١ ولم
تتسع وتبلغ من المدى ما يمنحها صفة الشمول . فليس في الشعر
العربي ولا النقد العربي القديمين وعي للتجربة الرومانسية و
تأكيدٌ عليها وإقامة الشروط والتبريرات لها ، إن هي إلا خواطر
وسوانح تعبر بالشاعر من طبيعة تجربته ذاتها .

ومع ذلك كله ، فإننا نقع على ملح ولع رومانسية واضحة
المعالم في بعض الشعر القديم . وإذا عدنا إلى تجربة امرئ القيس ،

١ النزعة الشعبوية : محاولة طمس ما هو جيد للعرب ، وقام بهذه الحركة غير
العرب (الفرس واليهود تحديداً) ، أي شعوبٌ أخرى انتقدت العرب .

نجدّه وقد خطف في لحظات رومانسية متفوقة عبر الطلل وبخاصة

في قوله : ١

أَلَا عِمَّ صَبَاحاً أَثَمِهَا الطَّلُّ الْبَالِي

وَهَلْ يَعِمَّنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْحَالِي

وَهَلْ يَعِمَّنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُحَلَّدٌ

قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالٍ ٢

ومثل هذين البيتين الطليين قد يدوان تقريرين في
طالعهما الظاهر ، فإذا أمعنا فيها ألفيناها مفعمين بالروح
الرومانسية والوجود الوجودي والماوراني .

وإنَّ الشاعر في ذهوله وانخطافه يخاطب الطلل وهو كناية
عن حجارة ونؤي ووتد وموضع أثافي ، يخاطبه وكأنّه يخاطب

١ ديوان امرئ القيس ص ٢٧ .

٢ بأوجال : الأوجال جمع وجل ، وهو الفزع .

إنساناً يشاركه المعاناة. ولعلَّ الجاهلي وكان ابن البداة المبرمة في يقينه الداخلي ، أحسَّ أنَّ في تلك الجوامد الصَّامته أرواحاً خفية تناديه وتناجيه بصمت وتكلم دون كلام وتُصغي دون أن تسمع . ولقد تجاوز الشاعر عبر ذلك الحدود المادية أو الوصفية المقررة ونفذ فيما وراء العقل وتخطاه دون أن ينقصه ، وتلك كانت نوعاً من الرومانسية الفعلية بالحياة والمعاناة وليست بالنظرية والمبادئ الواعية . إلا أنَّ الشاعر يُردف بأنه لا سبيل إلى إسعاد الشيء الذي يزول ويتعفى . وهنا تطرأ على الشاعر تجربة الزمن الذي ينقض الأحوال ولا يدع الأشياء تقيم على ما يرغب الأحياء منها .

إنَّه شعور التولي والنزوح وهروب الثواني بالعمر فيما هي تعدو بنا أو نعدو بها . والشاعر يقول إنَّه مادام الزمن يعبر فليس من سعادة تُقيم ، وليس من حقيقة باقية . ثمَّ إنَّه يضيف بأن السعادة لا توائي إلا الملحد الذي لا يبيت تحت وطأة الهموم

والخوف . ولقد نفح الشاعر في قلب الطلل العافي تجربة زوالية
وعدمية بل تجربة الخوف والتوقع من غدرات الزمن وانتكاساته .
فهذا الطلل كما بدا خلال هذين البيتين هو طلل رومانسيّ ،
داخلي وتجربة الزمن والحياة والموت والسعادة والتعاسة ومعاناة
الترجي والقهر ، هذه كلها تحول ذلك الرسم إلى حالة تقمّصت
فيها زوالية الأشياء وانخطافها في قدرها المكتب لها دون إرادة .
فامرؤ القيس عانى الحياة والطبيعة من الدّاخل وتلك هي
الرومانسيّة الفعلية .

والمهم في ذلك كله الخوف الغامض الذي لا باعثاً ظاهراً له
في قوله: " ما يبيّت بأوجال " وكأنّ امرأ القيس كان يحس بأنّ
الإنسان متروك لقدره وأنّ الدّهر يتربص به في كلّ حين ، فالطلل
هو هنا الشاعر نفسه ، وقد تنفس عن همومه وغمه من خلال
الأنقاض وهي مثله في تهدّمها وخرابها .

وفي القصيدة التي نظمها هذا الشاعر وهو يشطر وجهه إلى
القيصر ، وقد مرَّ بحوران تقع على نوعٍ من الوجد الرومانسيّ
الشديد الشحوب والاصفرار ، إنَّه لم يعد يحنُّ إلى الطلل بل البادية
كلها وكأنها استحالت إلى رمز للنعيم وما دونها رمزاً للنعيم وما
دونها رمزاً للجحيم . يقول : ١

أَلَا هَلْ أَتَاهَا وَالْحَوَادِثُ جَمَّةً

بِأَنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ بْنِ تَمْلُكٍ بَيَّقَرَا

فَلَمَّا بَدَتْ حُورَانُ وَالْأَلُّ دُونَهَا

نَظَرَتْ فَلَمْ تَنْظُرْ بِعَيْنَيْكَ مَنْظَرَا

تَقْطَعُ أَسْبَابُ اللَّبَانَةِ وَالْهَوَى

عَشِيَّةَ جَاوَزْنَا حُمَاةَ وَشَيْزَرَا ٢

١ ديوان امرئ القيس ص ٦١ .

٢ حماة وشيزرا : موضعان في ناحية الشام .

فالشاعر يأسى ويجزن أنه غدا ببقرا أي غدا من أبناء المدن
وتلك داهية أَلَّتْ به وكأنَّ الإقامة في المدن من تلك الفواجع التي
يلقي بها الدَّهر على أبنائه الواهين بين قبضته ، والرومانسية تظهر
في ذلك الحنين ومعاناة الغربة بين أحضان العالم المتجهَّم ، الفاقد
الصلة بالنفس والمظاهر التي تغدو كأنها جدران لمنفى .

ولقد خطف البرق ونزل المطر والشاعر يستطلع مَصَاب
البرق والمطر لعله ينزل في أرض الحبيبة. ولعله أراد أن يحمله
التحية لها أو أنَّه يحسده على النزول في تلك الأرض الباردة ، وهل
بعد أصفى في الوجد الرومانسيّ من هذه الفلذات الموحشة الناحية
على البعد والقرب والتي تخفق بمثل الأنين للبرق الذي يخطف
المطر الذي ينهمر وكان الشاعر قد بثَّ فيها وحملها فيما فوق العقل
تجربة النزوح والفراق والصبابة تلك كانت رومانسية أولى بدائية
عفوية، حميمة، لم تنزل فيها لعنة الوحي والنظريات والمبادئُ

والفعل وردّة الفعل وهدم الكلاسيكية والتأسيس للرومانسية من دونها .

هنا الإنسان يواجه الكون بالبداهة والحنين والندم والغربة والألم والوهن ولا ينكر ضعفه وهزاله بين يديه ، حتى أنّه يتجاوز حدوده الممكنة ويحمل المطر تحيته وحنانه ووجده .

وإذا عدنا إلى وصف امرئ القيس للمرأة لوجدنا أنّه يجمع لها شتات الطبيعة ومظاهر متباينة ليدع معادلة لها .

يشبه لونها بلون بيض النعام الأبيض المصفر وقد غذى بنمير الماء العذب البكر . وقرن عينها بالظبية وشعرها بقنو النخلة وساقها بالقصب المذلّل بالماء وجعل وجهها يضيء الليل كمصباح راهب .

وفي الظاهر نخيل إلينا أن امرأ القيس شخص حسي أمام المرأة ، يجسد إحساسه بموضوع الفتنة فيها .

إِلَّا أَنَّ التَّقْصِي فِيهَا يَطْلَعُنَا عَلَى أَنَّ الشَّاعِرَ أَضْمَرَ حَسَا
بِحَسِّ وَأَنَّهُ كَانَ يَعْبُرُ عَنْ نَوْعٍ مِنَ الشَّهْوَةِ إِزَاءَ جَسَدِ حَبِيبَتِهِ ، فَهُوَ
يَبْصُرُ لَوْنَهَا وَسَاقَهَا ، وَلَكِنَّهُ يَتَحَسَّسُهَا فِي الْآنَ ذَاتَهُ ، وَيَحْسُ بِأَنَّهَا
نَدِيَانِ طَرِيَانٍ ، مَرْوِيَانِ مِنَ الدَّخْلِ .

وَقَدْ أَلْفَ بَيْنَ حَاسَتِي اللَّمَسِ وَالْبَصَرِ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ
وَعَبَّرَ صُورَةً مُتَأَلِّفَةً . وَهَذَا الْإِحْسَاسُ الْعَمِيقُ قَدْ مَا يَدْنُو مِنَ الْبَعْدِ
الرَّمْزِيِّ فَضْلًا عَنِ الْمَظْهَرِ الرُّومَانِيِّ . وَالتَّوْحِيدُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَالطَّبِيعَةِ
فِي ذَلِكَ الشُّعُورِ الْعَفْوِيِّ الْحَادِ الْعَمِيقِ ، قَدْ يَكُونُ مُنْبَعَثًا مِنْ حَسِّ
رُومَانِيٍّ عَمِيقٍ بَفْتَنَةِ الْمَرْأَةِ وَالطَّبِيعَةِ مَعًا ، وَلَنَنْظُرَ فِي قَوْلِهِ وَاصِفًا
حَبِيبَتَهُ : ١

إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ الْمِسْكُ مِنْهُمَا

نَسِيمُ الصَّبَا جَاءَتْ بِزَيًّا مِنَ الْقَطْرِ ٢

١ ديوان امرئ القيس ص ١٥٧ .

٢ القطر : العود الذي يتبخَّرُ به .

كَأَنَّ النَّجَارَ أَصْعَدُوا بِسَبَبَةِ
 مِنْ الْجَصِّ حَتَّى انزَلُوهَا عَلَى يُسْرٍ
 كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوَّبَ الْغَمَامَ
 وَرِيحَ الْخَزَامَى وَنَشَرَ الْقُطْرُ
 يُعَلِّ بِه بَرْدُ أَنْيَابِهَا
 إِذَا طَرَّبَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرَّ^١

فليس هناك فرق بين جمال الطبيعة في شتى مفاتنها وبين حبيبة
 الشاعر . فالصبا والخمرة والغمام في مائه والخزامى والبخور هذه
 كلها قائمة فيها .

ولنا أن نتمثل بمطلع المعلقة وفيه يقول :^٢

١ الطائر المستحَر : المصَوَّت بالسحر .

٢ ديوان امرئ القيس ص ٩ .

وَقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيئُهُمْ
 يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَىٍّ وَتَجَمَّلْ
 وَإِنْ شِفَائِي عَبْرَةٌ إِنْ سَفَحْتُهَا
 فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلٍ
 كَأَنِّي عَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحْمَلُوا
 لَدَى سَمُرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفٌ حَنْظَلٌ ١
 ففَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً
 عَلَى النَّخْرِ حَتَّى بَلَ دَمْعِي مُحْمَلِي
 وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيئِي
 فَيَا عَجَباً مِنْ رَحْلِهَا الْمُتَحَمِّلِ
 فَظَلَّ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا
 وَشَحْمِ كَهْدَابِ الدَّمْقَسِ الْمُفْتَلِ ٢

١ السمر : شجر أم غيلان ، وهي شجر الصمغ العربي ، والناقف : المستخرج

حب الحنظل ، والحنظل له حرارة تدمع منها العين .

٢ الدmqس : الحرير الأبيض .

فهذه أبيات رومانسية بالذكرى والندم والدموع ، وفيها من الرومانسية المغامرة في ذبح المطية وإطعامها للعذارى وكأنَّه يتهتك بكل ما يحرص عليه الآخرون وبدلاً من أن تكون المطية للقتال ، فإنه يذبحها للذة واللهو ، معارضاً بذلك واقع المجتمع والعصر صادراً عن يقين إلحادي بالقيم الأخلاقية والاجتماعية التي يحرص عليها الآخرون .

ويمكننا كذلك أن نولج تجربة عنتره المتجهمة السوداء وحنينه وحنانه وقسوته والذكرى التي فيها رومانسية واضحة، وخمرة طرفة العدمية المظلمة ومعاناته للموت القريب البعيد .

إنَّ ذلك كله يقع في التجربة الرومانسية الفعلية وإن كان أصحابه لم يعوها بوعيهم النظري إذ لم تقو في عصرهم نظريات شعرية . وأياً ما كانت الحال ، فإن التجربة الرومانسية هي تجربة عميقة في النفس البشرية ، بل إنها لازمتها منذ عهدها الأول وبقدر ما يوغل الإنسان في بداوة الشعر تتبدى له الملامح والتجارب

الرومانسية المفعمة بالبداهة والعفوية ، حين حاول الشاعر أن يعانق روح الكون .

ولسنا بصدد إحصاء معالم الرومانسية كلها في الشعر القديم لكننا ننوّه بأنها كانت قائمة في طباع القصيدة وطبائعها .

الرومانسيّة في القرون الإسلاميّة الأولى :

وفي القرون الإسلاميّة الأولى نلمح العديد من التجارب الرومانسية في غزل جرير وخمريات الأخطل ومن إليها ، إلا أنّ تجربة عمر بن أبي ربيعة قد ما تنطوي على قليل أو كثير من الرومانسية فهو لم يكن من أصحاب العواطف الثابتة التي صحبت الرومانسيين .

ولابن الرومي - في العصر العباسي - إحساسٌ بروح الطبيعة أكثر من سواه وكثيراً ما كان يبتها همومه ونواياه ويتحد في وحدة حيّة عميقة .

يقول في موت والدته :^١

^١ الرومانسية في الشعر الغربي والعربي .

وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا وَبَاخَ ضِيَاؤُهَا
 وَشَمْسُ الصُّحَى حَيْرَى عَلَى الْقَمَمِ
 وَأَبْدَى اكْتِبَاءً كُلُّ شَيْءٍ عَلِمْتُهُ
 وَأَضْعَافَ مَا أَبْدَاهُ مِنْهَا مَا كُتِمَ
 كَذَلِكَ أَرَى الْأَشْيَاءَ وَهَمًّا وَهَمْتُهَا
 نَهَاراً وَأَضْغَاثُ حُلُمٍ حُلُمٍ

فهذا إحساس بعقم الوجود من خلال ضوئه ، والشمس ذاتها مشرقة إلا أنها حائرة فوق القمم ، وهذه الحيرة مستمدة من ذات الشاعر ، وقد ارتسمت على محيا الشمس ، وللشمس بُعد آخر هو الحياة كلها ، حياة الشاعر ، وحياة الناس ، والوجود كله كئيب .

وفي النهاية يُخيل إليه أَنَّ الأشياء موجودة ومفقودة ، إِنَّه لا يرى الوجود بل اشباحاً واهمة وهو لا يحيا في واقع العالم بل في كوابيسه .

وللبحّري قصيدة في بركة المتوكّل تقع في مجال التجربة الرومانسية وكان البحّري أدنى الشعراء لهذه التجربة لأنه كان يتقبل الأشياء بانفعاله الذي لم تروّضه الحضارة ولا العقل كابن الرومي والمتنبي ولقد تهوّل أمام أعجوبة الحضارة فحينما شاهد بركة المتوكّل تلهّف غاية التلهّف وجعلها الأولى والبحر ثانيها ، ولا شك أنّ في ذلك نوعاً من الغلو المأثور ، إلا أنّ الشاعر يبدو وكأنّه صادق في تهوله من فتنة الحضارة وقدرتها على تجاوز القدر الإنساني الأليف والحدود التي وقف عندها البدائي الأوّل .

يقول البحّري في وصف بركة المتوكّل :^١

يَا مَنْ رَأَى الْبِرْكََةَ الْحَسَنَاءَ رُؤْيُهَا

وَالْأَنْسَاءُ إِذَا لَاحَتْ مَغَانِيهَا^٢

١ الأدب والنصوص للصف الثانوي ١٩٨١ ف ص ١٣٨ .

٢ المغاني : جمع مغنى وهو المنزل .

وَحَسْبُهَا أَتَمَّا فِي فَضْلِ رُتْبَتِهَا
تُعَدُّ وَاحِدَةً وَالْبَحْرُ ثَانِيهَا
كَأَنَّمَا الْفِضَّةُ الْبِضَاءُ سَائِلَةٌ

مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا^١
إِذَا النُّجُومُ تَرَاءَتْ فِي جَوَانِبِهَا
لَيْلًا حَسِبْتَ سَمَاءً رُكِّبَتْ فِيهَا
مُخْفُوفَةٌ بَرِيَاضٍ لَا تَزَالُ تَرَى

رِيشَ الطَّوَاوِيسِ تَحْكِيهِ وَيَحْكِيهَا^٢
كَذَلِكَ فَإِنَّ وَصْفَ الرَّبِّيعِ لِأَبِي تَمَّامٍ قِصَّةٌ جَدَلِيَّةٌ بَيْنَ
الصَّحْوِ وَالْمَطَرِ ، وَقَدْ حَاولَ أَنْ يَعِثِرَ عَلَى سَبِيلٍ لِتَأْلِيفِ الْأَضْدَادِ فِي
الْوُجُودِ ، وَأَبُو تَمَّامٍ أَحْسَنَ بِقَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ مِنْ فَرَحَةِ الرَّبِّيعِ وَخَيْلٍ إِلَيْهِ
أَنْ يَهْجَةَ الرَّبِّيعَ تَكْفِي الْإِنْسَانَ عَمَّا دُونَهَا ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ تَخْلَصَ مِنْ

١ السبائك : جمع سبيكة وهي القطعة من الفضة أو نحوها .

٢ تحكيه : تشبهه .

عاهاته معها، فلم يعد يطلب رزقاً وعيشاً ولم يعد تمتعته
الضرورات والحاجات وعاد يكتفي من الوجود بأن يشاهده
ويبصر فتنته وروعته.

وتلك تجربة رومانسية عميقة من إحساس الشاعر بالفرح
الذاتي ، ومن إحساسه في جهة أخرى بأن الحاجات والضرورات
إنما تُنكد على الحيّ حياته .

يقول في وصف الربيع :^١

نزلتُ مقدّمةُ المَصيفِ حميدةً

ويدُ الشّتاءِ جديدة لا تُكفّرُ^٢

مطرٌ يذوبُ الصحو منه وبعده

صحوٌ يكاد من الغضارة يُمطرُ^٣

١ الأدب والنصوص ، للصف الثاني الثانوي ١٩٨١ ف ، ص ١٣٥ .

٢ تكفر : تستر وتجدد .

٣ الغضارة : شدة الخضرة .

ما كانت الأيامُ تسلبُ بهجةً
 لو أنَّ حُسْنَ الرّوضِ كان يُعمَّرُ
 يا صاحبيّ تقصّياً نظريكمَا
 تريا وجوه الأرضِ كيفَ تُصوِّرُ
 تريا نهراً مشمساً قد شابهُ
 زهرُ الرُّبا فكأنهُ هُوَ مُقَمَّرُ

وعلى هذا يمكن القول إنّ الشعر العربي أُلِّمَ بالتجارب
 الرومانسية على مستويات مختلفة وإنَّه غلَّب الانفعال على العقل في
 مواضع ، إلا أنَّه لم يقيم على ذلك ويتخذهُ كمذهب مطلق وحيد كما
 فعل الرومانسيون الغربيون ، فضلاً عن ذلك فإنَّ طبيعة الصورة
 ظلت غالباً في الحدود الكلاسيكية المأثورة .

فالرومانسية الأولى - وإن لم تكن حركة معروفة أوان ذاك -
إلا أنها كالحركة الرومانسية المذهبية فجّرت اللفظة التي كانت
غالباً لفظة حسية وعقلية ، واللفظة النفسية مليئة بالذكريات
والعاطفة الواضحة والغامضة .

الشابي والرومانسية في العصر الحديث :

بدأت بذور الرومانسية - داخل الوطن العربي - عند

مطران وقصيدته المساء التي يقول فيها :

دَاءُ أَلَمْ فَخَلْتُ فِيهِ شِفَائِي

من صبوتي فتضاعفت بُرحائي

يَا لِلضَّعِيفِينَ اسْتَبْدَا بِي وَمَا

فِي الظُّلَمِ مِثْلُ تَحَكُّمِ الضُّعَفَاءِ

قَلْبٌ أَصَابَتْهُ وَاجْجَوَى

وَعِلَالَةٌ رَثَّتْ مِنَ الْأَدْوَاءِ

بيد أنَّ الريادة الحقيقية للرومانسية داخل الوطن العربي تمثلها

مدرسة الديوان بريادة عبد الرحمن شكري وإبراهيم المازني وعباس

محمود العقاد .

وقادت الرابطة القلمية في المهجر بزعامة جبران وميخائيل
نعيمة حركة تجديدية في الشعر العربي حيث تفجر ينبوع
الرومانسية الغزير في أدب جبران فكانت اللفظة في أدبه وكأنها
نغمٌ روحي ولم يدع حالة من الأحوال النفسية ولا شعوراً ولا
تجربة إلا وتغنى بها وكساها بالخيال والانفعال العاطفي .

وكانت رومانسية جبران أكبر تجربة في الأدب العربي
المعاصر لأنها حررت اللفظة من قبضة الذهن وقد مكّن للخيال في
الأطر الحسية ولم يقف عند أي حائل ، فكان ابن الحرية الإبداعية
التي أوجت إلى الأدب العربي روحاً جديدة لن يقع على مثل لها
عبر عصور طويلة .

وفيما كان جبران يفجر ينبوع الرومانسية في المهجر كانت
البلاد العربية تحتضن تجارب متعددة غلبت عليها النزعة السياسية
والاجتماعية ، إلا أن جماعة في مصر أنشأوا جمعية أبوللو ومن بينهم
الدكتور زكي أبوشادي وانظم إليهم الشابي من تونس ، ولم يكن

الدكتور أبوشادي من الموهبة والثقافة ما يقدر له أن ينهض بعبء هذا المذهب الروحاني ، ولم يكن لصحبه العبقريّة المتفجرة غالباً .

إلا أنّ الدكتور إبراهيم ناجي حاول في مرحلة النضج الفني لديه أن يسمو بتلك التجربة ودّرّت له بعض القصائد العليا نسبياً وفي ظلال الرومانسية التقى أبو القاسم بأدب جبران وما فيه من خصائص ومميزات فوجد فيه رفيقاً قوياً لعقله وفكره .

وتجاوبت الآراء والأفكار الرومانسية مع الخصائص الذاتية لأبي القاسم ، ووجد فيها ملاذاً وملجأً ، كما وجد فيها متنفساً لعواطفه الجياشة ، وحساسيته المفرطة ، فالكون كله عواطف وشعور كما يقول :

عِشْ بِالشُّعُورِ وَلِلشُّعُورِ فَإِنَّهَا

دُنْيَاكَ كَوْنُ عَوَاطِفٍ وَشُعُورِ

شِيدَتْ عَلَى الْعُطْفِ الْعَمِيقِ وَإِنَّهَا

لَتَجِفُّ لَوْ شِيدَتْ عَلَى التَّفَكِيرِ

فالشابي تميز عن هؤلاء كلهم بل تميز على شعراء حقبتة
جميعهم ، وسطع نجمه وتألقت شمسهُ ويخيّل إلينا أنّه أصفى
الشعراء الرومانسيين العرب .

الفصل الرابع

- الوطنية في شعر الشابيّ.
- الطبيعة في شعر الشابيّ.
- المرأة في شعر الشابيّ.

الوطنية في شعر الشابي :

وطنية الشابيّ وطنية صادقة لا تخدم أغراضاً طبقية ، ولا تسير في ركاب حزب ولا توحىها مناسبة هزيلة ضئيلة لا تخرج في سطحيّتها وبرودها عن تعليق الصحف .

وطنية متمردة ، وطنية الشاعر الذي وعى رسالته ، فأحسّ في أعماقه أنّه مسؤول عن تبصير شعبه بمعاني الحياة الحرة الكريمة ، مسؤولية الشاعر الذي احترم ذاته وكيانه واستقلّ بهما عن الآخرين ، فأحبّ لشعبه أن يحقق ذلك في شخصية متميزة تتجه إلى المساهمة الحضارية الخالقة .

ويقول التليسيّ في كتابه "الشابي وجبران" :

" وكأنما كان يرى - هذا الشاعر الثائر - أن لا سبيل إلى طرد المستعمر وقهر الغاصبين إلا بخلق الشخصية القومية الطامحة" .^١

^١ الشابي وجبران ص ٧٨ .

فالشخصية القومية الطامحة لا تحلق إلا فوق الرومانسيين
الحالمين بغير الواقع ، فللشابي قصيدة قالها قبل موته بشهرين
بعنوان "الدنيا الميتة" : ١

إِنِّي أَرَى فَأَرَى جُمُوعاً جَمَّةً

لَكِنَّهَا تَحْيَا بِلَا أَلْبَابِ

يُدَوِّي حَوَالِيهَا الزَّمَانُ كَأَنَّمَا

يُدَوِّي حَوَالِي جَنْدِلٍ وَتُرَابِ

لُعْبٌ تَحْرُكُهَا الْمَطَامِعُ وَاللَّهُى

وَصَغَائِرُ الْأَحْقَادِ وَالْآرَابِ

الشاعرُ الْمَوْهُوبُ يَهْرِقُ فَنَّهُ

هَذِرًا عَلَى الْأَقْدَامِ وَالْأَعْتَابِ

الْوَيْلُ لِلْحَسَّاسِ فِي دُنْيَاهُمْ

مَاذَا يَلَاقِي مَنْ أَسَى وَعَذَابِ

عنوان القصيدة يفصح عن مضمونها حيث تتجلى نقمة
 الشابي وحساسيته المفرطة وشعوره بأنّه يعيش في عالم غريب بين
 الغرباء والموتى ، فيحاول أن يستثير همّة الشعب فيقول في قصيدته
 "إلى الشعب" : ١

أينَ عزمُ الحياةِ ؟ لا شيءَ إلَّا
 الموتُ والصمتُ والأسى والظلامُ
 عمرٌ ميتٌ ، وقلبٌ خواءٌ
 ودمٌ ، لا تُثيرُهُ الآلامُ
 وحياةٌ تنامُ في ظُلْمَةِ الوادي
 وتَنُمُ مِنْ فَوْقِهَا الأوهامُ
 أيُّ عيشٍ هذا ، وأيُّ حياةٍ ؟
 (رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمَامُ) ٢

١ ديوان ٧٢ ص ٤٢٦ .

٢ عجز هذا البيت للمتنبي ، صدره : ذل من يغبط الذليل يعيش .

ولكننا نجد الشابي بين الحين والآخر يذكر الشعب بأنه
صاحب الموقف ، ويجعل الدور الأول في كل نهضة وحركة
للشعب ، فهو يحترم الشعب ويثق بقدراته إذا اتخذ الطريق
الصحيح وسار على النهج القويم ، فيقول في قصيدته " إلى
الطاغية " : ١

وفي صيحة الشعب المسخر زعزع
تخر لها شم العروش وتهدم
أغرك أن الشعب مغض على قذى
وأن الفضاء الرحب و سنان مظلم

وتنطلق وطنية هاتفة متمردة طليقة مؤمنة بالحياة والطوح
كارهة للحياة بين الحفر ومتطلعة إلى السمو مترفعة عن الجمود
والركود الذي لا يليق بأبناء الحياة المؤمنين بغدهم.

ففي قصيدته "إرادة الحياة" إيمان عميق بالطموح وكان يبحث في شعبه عن صورة المتطلع إلى ما وراء الوجود .

هذه القصيدة الخالدة التي تعلن للناس أن الطموح حبيب الحياة وروح الظفر كانت تغذيها مشاعر فياضة وأحاسيس شفافة تتدفق صدقا ورومانسية خلقتها ظروف شخصية وبيئية .

وينقل الشابي إلى الشعب حقيقة يدرك من خلالها أنه - أي هذا الشعب - لن يخرج من حالة الموت إلى عنفوان الحياة إلا إذا نشط فيه دافع الحياة ، إلا إذا "أراد" حقا أن يكون شعبا حيا .

وهذه الإرادة لا تتحقق بطريقة عفوية بل هي رهْنٌ بمدى حرارة "الأشواق" التي يستشعرها الإنسان إزاء الحياة . فإذا اشتعلت في نفسه هذه الأشواق تولدت الإرادة ، وتغلب فيه دافع الحياة على دافع الموت ، وعند ذلك يصبح الطموح دليل الإنسان إلى المغامرة . فإذا خمدت أشواق الحياة في نفس الإنسان فقد

الطَّمُوح وكَفَّ عن المغامرة ، وصار حياً كأنَّه ميت . وفي هذا يقول
الشَّابِي أبياته المشهورة من قصيدته "إرادة الحياة" : ١

إِذَا الشَّعْبُ يَوْمًا أَرَادَ الْحَيَاةَ
فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ الْقَدَرُ
وَلَا بُدَّ لِلَّيْلِ أَنْ يَنْجَلِيَ
وَلَا بُدَّ لِلْقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِرَ
وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الْحَيَاةِ
تَبَخَّرَ فِي جَوْهَا وَانْدَثَرَ
فَوَيْلٌ لِمَنْ لَمْ تَشْقُهُ الْحَيَاةُ
هُ مِنْ صَفْعَةِ الْعَدَمِ الْمُتَّصِرِ

١ ديوان ٧٢ ص ٤٠٦ ، وقد نظمها عام ١٩٣٣ ف ، أي قبل وفاته بعام واحد تقريباً .

ثم يعود في نفس القصيدة لكي يؤكد هذه المعاني حين يقول
على لسان الأرض :

أُبَارِكُ فِي النَّاسِ أَهْلَ الطُّمُوحِ

وَمَنْ يَسْتَلِدُّ رُكُوبَ الْخَطَرِ

وَالْعَنْ مَنْ لَا يُهَاشِي الزَّمَانَ

وَيَقْنَعُ بِالْعَيْشِ عَيْشَ الْحَجَرِ

هُوَ الْكَوْنُ حَيٌّ يُحِبُّ الْحَيَاةَ

وَيَحْتَقِرُ الْمَيِّتَ مَهْمَا كَبُرَ

فَلَا الْأَفْقُ يَحْضُنُ مَيِّتَ الطَّيُورِ

وَلَا النَّحْلُ يَلْتَمُّ مَيِّتَ الزَّهَرِ

وَلَوْلَا أُمُومَةُ قَلْبِي الرَّؤُومُ

لَمَا ضَمَّتْ الْمَيِّتَ تِلْكَ الْحُقُوفُ

فلم يكن الشابي من رجال السياسة أو الإدارة فيسعى لقلب

النظام ولا كان قائدا عسكريا فيشنها ثورة دامية يزحزح بها تلك

الهيكل المتجبرة عن عروشها ليفسح للشعب طريق التحرر والحياة
حياة إنسانية كاملة ، ولكنه كان شاعرا فأخذ يستغل مفعول الشعر
في تنبيه قومه والإهابة بهم لكي يخلعوا عنهم تلك الشيا القذرة
من الغفلة والاستسلام .

وكانت هذه خطوة من خطوات الإصلاح ، إذ خرج
الشابي بالشعر عما ألفه ذلك العصر من أغراض ، فسخره في
مساندة الدعوة الإصلاحية وجعله بوقاً من أبواق النهضة
والإيقاظ .

ويتضح لنا من مجموع الديوان أن هنالك نحو سبعة عشر
موضوعاً ، ذكر الشابي فيها الشعب : ثلاثة مواضع ورد فيها ذكر
الشعب على سبيل الإشارة العارضة التي لا توجب حكماً ، كقوله
في قصيدته " نظرة في الحياة " : ١

وللشعوب حَيَاةٌ حِيناً وَحِيناً فَنَاءٌ
 وَالْيَأْسُ مَوْتُ وَلَكِنْ مَوْتُ يُثِيرُ الشَّقَاءَ
 وَالْجِدُّ لِلشَّعْبِ رَوْحٌ تُوحِي إِلَيْهِ الْهَنَاءَ
 فَإِنْ تَوَلَّتْ تَصَدَّتْ حَيَاتُهُ لِلْبَلَاءِ

وأما المواضع الباقية ففيها كلها حملة شديدة على الشعب
 لاستنهاضه ، فالشابي يعيش مع الناس بغير رضاه غريباً وحيداً في
 عالمٍ من الغربة والاغتراب، من أجل ذلك تراه يريد أن يعيش
 بعيداً عن الناس كلهم حتى عن أمته وأهل بلاده .

يقول في قصيدته "السّامة" : ١

فأينَ الأمانِ وألحائِها ؟

وأينَ الكُؤُوسُ وأينَ الشرابُ ؟

لَقَدْ سَحَقْتَهَا أَكْفُ الظَّلَامِ
وَقَدْ رَشَفْتَهَا شِفَاهُ السَّرَابِ
فَمَا الْعَيْشُ فِي حَوْمَةٍ بِأُسْهًا
شَدِيدٌ وَصَدَّاحُهَا لَا يُجَابُ
كَيْبٌ وَحِيدٌ بِآلَامِهِ
وَأَحْلَامِهِ ، شُدُوهُ الْإِنْتِحَابِ
ذَوْتُ فِي الرَّبِيعِ أَزَاهِيرُهَا
فَنَمْنَنَ ، وَقَدْ مَصَّهِنَّ التُّرَابِ

الطبيعة في شعر الشابي :

تجربة الشابي في الطبيعة لا تعدّ ولا تُحصى ذلك لتعددتها
واتساعها وانحنائه فيها على الصغيرة والكبيرة ومن مزجها بتجربة
الحب والحرية والتكامل الروحي فيما وراء الوجود .
وليس في شعر الشابي قصيدة واحدة تغيب عن مظاهر
الطبيعة وعناصرها ، ولعله أوشك أن يستنفذ موضوع الطبيعة
ويأتي عليه بذاته وبما إليه ، فالشاعر في قصيدته "بقايا الخريف"
يهيل التشابه والاحتمالات على الخريف حيث يجد الفضاء وكأنه
شاعر حالم والزهور مكفنة والغدير مواتاً والزهرة التي قضت
والتي يرثيها أفجع الرثاء وكأنه يرثي فيها زهرة العمر والحياة بل
إنها زهرة آماله الرومانسية التي تكاد لا تزهر وتشب حتى تحني
أعناقها للزوال .

يقول في قصيدته "بقايا الخريف" : ١

فسرتُ إلى حيثُ تأوي أغاني

الرَّبيع وتذوي ٢ أمني الخريف

وحيثُ الفَصَا شاعرٌ حالمٌ

يناجي السُّهولَ بوحى طريف

وقدْ دثَّرتُهُ غيومُ المساءِ

بطلٍّ حزينٍ ضريحٍ شفيف

وقفتُ وحولي غديرٌ مواتٌ

تمادَّتْ به غفواتُ الكُهوف

قضتُ في حَفَا فِيهِ تِلْكَ الزُّهورِ

فَكَفَّنَهَا بالصَّقيعِ الخريف

سوى زهرة شقيت بالحياة

وملبثها بالمقام المخيف

ثم يمضي إلى أن يقول :

ذكرتُ بمضجعها المطمئن	ومرقدها في السفير الجفيف
مصارعَ آمالي الغابرات	وخيبتها في الصراع العنيف
فقلبتُ طرفي بمهوى الزهور	وصعدته في الفضاء الأسيف
وقلتُ : "هو الكونُ مهدُّ الجمال	ولكن لكلِّ جمالٍ خريف..!"

ولا يعتم على الشاعر أن يسمع قصف الرعد وها إنه
 يترجم صوته ويحس أنه لا يقصف وإنما هو أشبه بروح معذبة تن
 وتعمل في قمم جسدها بل إنه ربما كان صوت الحق الذي يتماهى
 في عنفه ليسكت صوت الظلم . تلك احتمالات طرأت على ذهن
 الشاعر تحت وقع الرعد ولكن هذه التساؤلات ظلت في السدى لم

يسمع عنها جواباً فالنهار والليل لم يجيبا والليل ظل مطبقاً مثل
غدير الفقر .

يقول في قصيدته "أنشودة الرعد" : ١

عَانَقَ الْكَوْنَ الْخُشُوعُ	فِي سُكُونِ اللَّيْلِ لَمَّا
خَلْفَ آفَاقِ الْهُجُوعِ	وَاخْتَفَى صَوْتُ الْأَمَانِي
رَدَّدَتْهُ الْكَائِنَاتُ	رَتَّلَ الرَّعْدُ نَشِيداً
بِأَعْمَاقِ الْحَيَاةِ	مِثْلَ صَوْتِ الْحَقِّ إِنْ صَاحَ
فِي خَلَايَا الْأُودِيَةِ	يَتَهَادَى بِضَجِيجٍ
بِأَقْصَى الْهَوَايَةِ	مِثْلَ جَبَّارِ بَنِي الْجَنِّ
كُئِيبٌ وَرَهَيْبٌ	فَسَأَلْتُ اللَّيْلَ وَاللَّيْلُ
جَمِيلٌ وَغَرِيبٌ	شَاخِصاً بِاللَّيْلِ وَاللَّيْلُ
أَنِينٌ وَخَنِينٌ	أُتْرَى أَنْشُودَةُ الرَّعْدِ
مُهِجَّةُ الْكَوْنِ الْحَزِينِ	رَتَّمَتْهَا بِخُشُوعٍ

أُمِّ هِيَ الْقُوَّةُ تُسْعَى بِاعْتِسَافٍ وَاضْطِحَابٍ
 يَتَرَأَى فِي ثَنَايَا صَوْتَهَا رُوحُ الْعَذَابِ؟
 غَيْرَ أَنَّ اللَّيْلَ قَدْ ظَلَّ رُكُودًا، جَامِدًا
 صَامِتًا مِثْلَ غَدِيرِ الْفَقْرِ مِنْ دُونِ صَدَى!

وحين يرنو الشاعر إلى الليل فإن اللغز ذاته يبين له كما بدا
 في الخريف والرعد. ماذا يكون الليل؟ إنه إله رؤوف ربُّ
 العرائس، وقد يكون إله الرعب والرعبة، وفي حين يُخَيِّلُ إليه أَنَّهُ
 والدٌ رحيم يضم الطبيعة بين أحضانه ويتعطف عليها بل إِنَّهُ
 يولجها إلى ذاته ويدوب فيه.

وللمساء وقعة في شعر الشابي وهو مثار للأحلام والكآبة،
 وفيه معنى الأوبة والنهاية مع التعب والكفاح في ساح النَّهَارِ. كُلُّ
 شيءٍ يؤوب في المساء، إلا أمل الشاعر فإنه وَلَّى ولا عودة له.
 والأمل ذاك ليس أملاً بقاء وإنما هو أملٌ خاص لإنسان كليٍّ، أمل
 العثور على يقينه وعلى حريته وعلى كُليته، أمل العثور على نفسه

وفهم ذاته . وهذه الكآبة تفيض من غربة النفس ووحاشة العالم
وامتناع الحقيقة .

يقول الشابي في قصيدته " أيها الليل " : ١

أَيُّهَا اللَّيْلُ يَا أَبَا الْبُؤْسِ وَالْهَوِّ

لِ يَا هَيْكَلَ الْحَيَاةِ الرَّهِيْبِ !

فِيكَ تَجْتَوِ عِرَائِسُ الْأَمَلِ الْعَذِّ

بِ ، تُصَلِّي بِصَوْتِهَا الْمَحْبُوبَ

فَيُثِيرُ النَّشِيدَ ذِكْرَى حَيَاةٍ

حَاجَبَتْهَا غُيُومٌ دَهْرٍ كَثِيبٍ

ويمضي في قوله إلى :

فَلَكَ اللَّهُ مِنْ فُؤَادٍ رَحِيمٍ

وَلَكَ اللَّهُ مِنْ فُؤَادٍ كَثِيبٍ

يهجُ الكونُ ، في طمأنينةِ العُصـ

فور ، طِفْلاً ، بصدرِكَ الغَريبِ

وبأحضانِكَ الرحيمَةِ يستيقظُ في

نضرةِ الضُّحوكِ الطَّروِبِ

* * * * *

إنَّ واديَ الظَّلامِ يَطفَحُ بالهُوْ

لِ ، فما أبعدَ ابتسامِ القلوبِ !

قَدْ سَأَلْتُ الحَيَاةَ عَنْ نعمةِ الفَجْـ

رِ ، وَعَنْ وَجْهِ المِساءِ القَطُوبِ

فسمعتُ الحَيَاةَ ، في هيكَلِ الأحزَا

نِ ، تشدُّو بِلَحْنِهَا المَحْبُوبِ

مَا سُكُونُ السَّمَاءِ إِلَّا وُجُومُ

مَا نَشِيدُ الصَّبَاحِ غَيْرُ نَحِيبِ

لَيْسَ فِي الدَّهْرِ طَائِرٌ يَتَغَنَّى

فِي ضِفَافِ الحَيَاةِ غَيْرَ كَيْبِ

* * * * *

جرفت من قرارة القلب أحلا
 مي إلى اللحد، جائرات الخطوب
 فتلاشت على تخوم الليالي
 وتهاوت إلى الجحيم الغُصوب
 وثوى في دُجْنَةِ النَّفْسِ ومضُ
 لم يزل بين جيئةٍ وذهوبٍ
 ذكرياتٌ تَمِيسُ^١ في ظلمةِ النَّفْسِ
 ضئلاً، كرائعاتِ المشيبِ
 يَا لِقَلْبٍ مَجْرَعِ اللَّوْعَةِ الْمُرِّ
 ةً من جدولِ الزَّمانِ الرَّهيبِ!
 وَمَضَتْ فِي صَمِيمِهِ شُعْلَةُ الْحُزْنِ
 نِ، فَعَشَّتْهُ مِنْ شُمَاعِ اللَّهْيِبِ

^١ تميس: تتبختر.

وهكذا كان الشابي يحاول أن يستبطن مظاهر الوجود وأن يهبها عقلاً ونفساً ومعاناة دون أن يفلح في أن ينتظم عظمة الكون في سلك واحد . ويلوي عن ذلك على كآبة وجودية روحية من عجز الإنسان عن فض لغز الكون ولغز النفس . فالرَّعد هو كسائر مظاهر الطبيعة يحمل رسالة إلى الإنسان إلا أنَّ الإنسان في كثافة المادية ومنطقيته وحواسه العمياء ، بات عاجزاً عن تفهّم ظاهره وفض الرسائل التي يبعثها إليه .

ففي نظرة الشابي إلى الطبيعة شيء من الثورة على الحقيقة الفعلية ، فالطبيعة تستعجم على الإنسان لأن الإنسان مستعجم عن ذاته بهاديته وأنانيته ومنطقيته .

المرأة في شعر الشابي :

المرأة بالنسبة للشابي هي الحياة الروحانية ورمز الحياة المتحررة من عاهاتها وشوائبها ، وحيثما رنا الشاعر في الطبيعة تطالعه المرأة ، فكانت الحبيبة بالنسبة إليه منحلّة في قلب الطبيعة ، ومترائيّة أبداً في مظاهرها حتى توحدت الطبيعة والمرأة بوحدة نهائية لا انفصام فيها ، ذلك أن الشابي كان ابن نفسه وبيئته ولم تكن المرأة في بيئته إلا سراً مكتوماً ، فتحولت بذلك إلى حلم يغمر الطبيعة وسائر معاني الوجود .

وتصوير الشابي للمرأة إنما كان محاكاةً للطهر والعفة والجمال ، وبعيد كل البعد عن شوائب الجسد ، يقول في قصيدته

"صلواتٌ في هيكَل الحب" : ١

أَنْتِ أَنْتِ الْحَيَاةُ فِي قَدْسِهَا السَّامِي وَفِي سِحْرِهَا الشَّجِي الْفَرِيدِ
أَنْتِ أَنْتِ الْحَيَاةُ فِي رَقَّةِ الْفَجْرِ وَفِي رَوْتِ الرِّبْعِ الْوَلِيدِ

أَنْتِ أَنْتِ الْحَيَاةُ كُلُّ أَوَانٍ ، فِي رَوَائٍ مِنْ الشَّبَابِ جَدِيدِ
 أَنْتِ دُنْيَا مِنَ الْأَنَاشِيدِ وَالْأَحْلَامِ وَالسَّحْرِ وَالْخَيَالِ الْمُرِيدِ
 أَنْتِ فَوْقَ الْخَيَالِ وَالشَّعْرِ وَالْفَنِّ وَفَوْقَ النَّهْيِ وَفَوْقَ الْحُدُودِ
 أَنْتِ قَدْسِي وَمَعْبُدِي وَصَبَاحِي وَرَبِيعِي وَنَشَوْتِي وَخُلُودِي
 يَا ابْنَةَ النُّورِ إِنَّنِي أَنَا وَحْدِي مَنْ رَأَى فِيكَ رُوحَةَ الْمَعْبُودِ
 فَدَعِينِي أَعِيشُ فِي ظِلِّكَ الْعَذْبِ وَفِي قُرْبِ حُسْنِكَ الْمَشْهُودِ
 عَيْشَةً لِلْجَمَالِ وَالْفَنِّ وَالْإِلْهَامِ وَالطُّهْرِ وَالسَّنَى وَالسُّجُودِ
 عَيْشَةَ النَّاسِكِ الْبَتُولِ يَنَاجِي الرَّبَّ فِي نَشْوَةِ الذُّهُولِ الشَّدِيدِ

وللحبِّ جدولة الذي كان موعداً له مع الحبيب يرتشف
 منه الأحلام ويصغي إلى أغاريد الحياة وأناشيد الخلود وإلى
 العذاوى ينشدن فيها أغاني الروح، والشاعر في قصيدة "جدول
 الحب بين الأمس واليوم" يرسم مثالية للحب من خلال الطبيعة
 المثالية الشفافة كاسياً الحب والطبيعة كليهما من أوهامه وأحلامه .

ولقد لقي على ذلك الجدول الرُّومانيّ فتاة تلاحت له لحظة وتوارت . إلى أين توارت ؟ لعلها عادت إلى منزلها أو بلدتها إلا أن الرومانيّ يأنف من التقارير الواقعية المباشرة حسب تقدير الشاعر ، ولا يمكن أن تقطن حبيته المنازل وتقيم في البيوت ، هي امرأة من لحم ودم ، والمرأة التي يحبها الشاعر هي امرأة روحية وحرورية أو عروس من عرائس الطبيعة الغامضة . ولذلك فإنها تقيم حيث تقيم أحلام الشاعر خلف الغيوم ، تقيم بين سائر العذارى اللواتي يرتلن وينشدن واللواتي يتجولن بين النجوم .

يقول في قصيدته "جدول الحب بين الأمس واليوم" :^١

هُوَ جَدُولُ الْحَبِّ الَّذِي قَدْ كَانَ فِي قَلْبِي الْخِضْلُ
بِمَرِّ أَشْفِ الْأَحْلَامِ مُنْطَلِقًا يَسِيرُ عَلَى مَهْلٍ
يَتَلَوُ عَلَى سَمْعِي أَغَارِيدَ الْحَيَاةِ الطَّاهِرَةِ
وَيُثِيرُ فِي قَلْبِي أَنَاشِيدَ الْخُلُودِ السَّاحِرَةِ

تقفُ العذارى الخالداتُ عرائسُ الشعرِ البديعِ
 في ضفَّتَيْهِ ، مُرَدَّدَاتٍ نغمةَ الحلمِ الوديعِ
 يلَمَسْنَ قيثارةَ الأحلامِ ، أوتارَ الغزلِ
 فتفيضُ الحانُ الصَّبَابَةِ عذبةً مثلَ الأملِ
 وتطيرُ بالبَسَمَاتِ والأنغامِ أجنحةُ الصدى
 في ذلك الأفقِ الجميلِ وذلك النَّسيمِ الرُّخا
 وهناك ، حيثُ تعانقُ البَسَمَاتُ أنغامَ الغزلِ
 يتمايلُ الحلمُ الجميلُ كبَسْمَةِ القلبِ الثَّمَلِ

* * * * *

هو جدولٌ قد فَجَّرَتْ ينبوعُهُ في مُهَجَّتِي
 أجفانُ فَاتِنَةٍ أرَتْنِيهَا الحياةُ لشقوتي
 أجفانُ فَاتِنَةٍ تراءتْ لي على فجرِ الشَّبَابِ
 كعروسةٍ مِنْ غَانِيَاتِ الشعرِ في شَفَقِ السَّحَابِ
 ثم اختفتْ خلفَ السَّمَاءِ وَرَاءَ هَاتِيكَ الْغُيُومِ

حيثُ العذارى الخالداتُ يَمِسْنَ ما بين النُّجوم
ثم اختفتُ أوَّاه ! طائِرةً بأجنحةِ المُنُونِ
نحو السَّماءِ ، وهَا أنا في الأَرْضِ تمثالُ الشُّجُونِ

فالرومانسي قلما يعشق امرأة من لحمٍ ودمٍ ، تلك امرأة
مظلمة آسنة - حسب رؤية الشاعر - ، والمرأة التي يحبها تأتي من
غيب ثقيله عثرته وترد روحه المتلهفة وتخلق في نفسه الحنين الهالع
أبداً ، لذلك كانت الحببية التي تغنى بها الشابي امرأة لا اسم لها ولا
هوية وليست معروفة في بيئته وبين صحبه ، إنه هو الذي ابتدعها
من أحلامه كسائر الرومانسيين ، وتعبد لها في محراب ذاته ومحراب
الطبيعة ، وظل الوجد يخفق فيه إليها على غير طائل .

وقد تباينت الآراء حول المرأة عند الشابي ^١ هل هي المرأة
الحسية التي هي من لحم ودم ؟ أم هي المرأة التي نسجها من خياله

^١ يقول محمد الحليوي : إن المرأة التي يقصدها الشابي هي امرأة خيالية غير حسية ، أما
زين العابدين السنوسي فيذكر أن المرأة هي امرأة حسية من لحم ودم .

لا اسم لها ولا هوية يرويها من فائض حنانه ويغمرها بفريد شعره
ويرى فيها عالما من المثل بعيدا كل البعد عن نجاسة المادة .

وبما أن الحديث يدور حول المرأة وشاعرية الشابي
الرومانسية فإنني أرى أن المرأة التي كان يترقبها الشابي ويرمز لها
في أشعاره هي امرأة روحية وشعوره اتجاهها شعور طاهر ، وغزله
فيها عفيف يتناسب مع امرأته الروحية .

وذكر بعض الدارسين ^١ أن الشابي كان غير ناجح في
زواجه مما يجعلنا نقول : إن صورة المرأة الروحية وصفاتها التي
تتميز بها عن غيرها من النساء الحسيات الموجودات في عالم المادة
كل هذا ربما كان سببا من أسباب فشل زواجه، إذ أن اختلاف
الواقع مع شاعريته الحاملة باللاواقع واللاموجود خلق في نفسه
شيئا من نقصان الذات وانتكاسها مما جعلنا نأسى على حياة هذا

^١ ابو القاسم كرو ، زكي أبو شادي .

الشاب الذي لم يتمتع يوماً بمرح الشباب وفرحه ، ولكننا في الوقت نفسه نستمتع نحن بوافر شعره العذب .

ومن مجموع الديوان يتضح لنا أن عدد القصائد التي قالها الشابي في المرأة حوالي تسع عشرة قصيدة^١ ، وله قصيدتان في الأم هما : "قلب الأم" و "حرمة الأمومة"^٢ .

١ تتداخل قصائد الحب مع القصائد التي قيلت في المرأة مما جعل العدد تقريبياً .

٢ ديوان ٧٢ ص ٣٢٥ ، ديوان ٧٢ ص ٤٧٣ .

الخاتمة

بعد هذه الدراسة متنوعة الوقفات؛ يمكننا القول: إنّ حياة الشاعر أبي القاسم الشابي كانت حياةً مضطربة يكتنفها المرض والمفاجآت غير السارة مما جعله يعاني من حساسية مفرطة ومشاعر مرهقة زادت من فرصة إصابته بمرض الرومانسية - إن صحَّ التعبير - ومن ثمَّ مرض القلب الذي ظلَّ يعاني منه الى أن وافاه الأجل ، فقد كان مندفعاً مع عاطفته ، ولا ريب في أنّ هذا الاندفاع كان سبباً من الأسباب التي قرّبت منيته إليه حسب رأي الأطباء ، مع أنه كان يستطيع أن يحيا مع دائه كما عاش غيره مع أدوائهم ، ولكن القضاء النافذ كان عليه كتاباً موقوتاً .

ويمكننا القول : إنّ شخصية الشابي الرومانسية كونتها أربعة عوامل واضحة المعالم في حياته وفي أحواله النفسية ثم في اتجاهه الفكري وأخيراً انعكست في شعره . وهذه العوامل هي التي ميزته عن غيره من الشعراء وخلقته فيه رومانسية واضحة المعالم ، وهذه العوامل الأربعة هي :

(أ) مرضه ، وعن مرضه نشأ تشاؤمه وسوداويته وشدة انفعاله حيناً بعد حين .

(ب) حالته المادية ، وعنهما نشأ ضغط أعباء الحياة وتكاليفها عليه فحرمه كثيراً من الحرية التي كان يجب أن يتمتع بها .

(ج) مطالعته : وهي التي طبعت نفسه وشعره بعناصر من الخيال والانفلات والتطواف والنقمة ثم خلعت على شعره شيئاً من الجدة والطرافة .

(د) حال بلده تونس ، والضعف السياسي ، مما خلفه الاستعمار الفرنسي .

ولقد أضيفت هذه العوامل الى عبقرية أصيلة وشاعرية
 فياضة ، فإذا نحن أمام شخصية فدّة ولكنها هائلة مضطربة ،
 وعاجزة ولكنها متمردة طموح .

ولا خلاف في أنّ الشابي كان متشائماً كئيب النفس ، فقد قال
 هو عن نفسه : " إنني في كثير من الأحيان تطغى على نفسي كآبة
 الملل المبهّم فأصدفُ عن الكتب والناس ، ويوصد قلبي عن جمال
 الوجود " ١ .

وأخيراً : فإن حياة الشابي كانت خسارة شخصية بالنسبة له
 وفائدة شعرية للآخرين ، فقد عانى الشابي ما عاناه لنستمع نحن
 بنتيجة هذه المعاناة ، وليزخر أدبنا العربي الحديث برومانسية رحبة
 الآفاق .

١ من رسالة له إلى صديقه محمد الخليوي (توزر - الشابية - ١٩ - ١٢ - ١٩٣٣
 ف) .

ذكر هذا الجزء من الرسالة في "الشابي شاعر الحب والحياة" لـ "عمر فروخ" .



المصادر والمراجع

أولا المصادر:

(أ) المعاجم:

- المصباح المنير العلامة أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (ت ٧٧٠هـ) مطبعة مصطفى الحلبي مصر السنة (غير مذكورة) .
- مختار القاموس الطاهر أحمد الزاوي .

(ب) الدواوين:

- ديوان امرئ القيس تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف مصر ط؛ ١٩٨٣ م .
- ديوان شعر أبي القاسم الشابي عز الدين إسماعيل دار العودة بيروت ١٩٧٢ م



ثانياً: المراجع:

- رسائل الشابي محمد الحليوي منشورات دار المغرب العربي
تونس ١٩٦٨ م.

- الرومانسية في الشعر الغربي والعربي إيليا الحاوي دار الثقافة
للنشر والتوزيع بيروت ط ١ ١٩٨٠ م.

- الرومانتيكية محمد غنيمي هلال دار العودة بيروت ط ١
١٩٧٣ م.

- شاعر وشعب (أبو القاسم الشابي) نعمات أحمد فؤاد
القاهرة ١٩٥٨ م.

- شاعران معاصران (إبراهيم طوقان ، أبو القاسم الشابي)
عمر فروخ المكتبة العلمية ومطبعتها ١٩٥٤ م.

- الشابي حياته وشعره أبو القاسم محمد كرو ط ٢ بيروت ١٩٥٤ م.
- الشابي شاعر الحب والحياة عمر فروخ دار العلم للملايين بيروت
ط ٢ ١٩٧٤ م.

- الشابي وجبران خليفة التليسيّ الدار العربية للكتابة ط ١ ١٩٧٨ م

- في الأدب التونسي محمد الحليوي الدار التونسية للنشر تونس

١٩٦٩ م.

- نماذج في النقد الأدبي إيليا الحاوي دار الكتاب اللبناني ط٢

عام (غير مذكور).

- كتب منهجية :

- الأدب والنصوص للصف الثاني الثانوي تأليف :

السباعي بيومي - محمد خلف الله - شوقي ضيف

عمر الدسوقي - عبد الحميد حسن

مؤسسة ناصر للثقافة بيروت - لبنان ١٩٨١ - ١٩٨٣ م.

- الأدب والنصوص للصف الثالث من معاهد المعلمين

والمعلمات تأليف :

فرج عبد السلام دسوقي - علي عبد المنعم عبد الحميد

مؤسسة ناصر للثقافة بيروت - لبنان ١٩٨١ - ١٩٨٣ م.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
• المقدمة	• ٥
• الفصل الأول :	• ١٣
• ابوالقاسم الشابي "موجز ترجمته"	• ١٥
• بواعث التجربة الشعرية عنده	• ٢٥
• الفصل الثاني :	• ٤١
• المذهب الرومانسي	• ٤٣
• مكونات المذهب الرومانسي	• ٤٤
• الحركة الرومانسية	• ٤٨
• الفصل الثالث :	• ٥١
• جذور الرومانسية في الشعر العربي	• ٥٣
• الرومانسية في القرون الاسلامية الأولى	• ٦٧
• الشابي والرومانسية في العصر الحديث	• ٧٤

- الفصل الرابع : ٧٩ •
- الوطنية في شعر الشابي ٨١ •
- الطبيعة في شعر الشابي ٩١ •
- المرأة في شعر الشابي ١٠٠ •
- الخاتمة ١٠٧ •
- المصادر والمراجع ١١٠ •